

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثاني والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة /عبد الرزاق باشا السنهورى

القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثاني والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٩

(* لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) : قبل منهم بيعتهم .

(يُبَايِعُونَكَ) : يعاهدونك على السمع والطاعة .

(السَّكِينَةَ) : طمأنينة القلب .

(وَأَثَابَهُمْ) : جازاهم .

التفسـير

١٨ ـ (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) :

المراد من المؤمنين هنا : أهل الحديبية [1] إلا جد بن قيس فإنه كان منافقاً فلم يبايع ، وهى بيعة الرضوان لقوله ـ تعالى ـ : (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) .

وخبر الحديبية : أن النبي ﷺ خرج معتمراً ومستنفراً الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم وخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب وكانوا فى ألف وأربعمائة على أرجح الأقوال فأحرم ـ عليه الصلاة

(١) الحديبية ـ وقد تشدد الياء ـ : بئر قرب مكة ـ حرسها الله ـ أو شجرة حدباء هناك .

والسلام – وساق معه الهدى ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب ، فلما وصل ﷺ الحديبية بركت ناقته فقال الناس : خلأت[١] خلأت ، فقال النبى ﷺ : (ماخلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل[٢] عن مكة . لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها) ثم نزل هناك ، فقيل : يارسول الله ،ليس بهذا الوادى ماء فأخرج – عليه الصلاة والسلام – سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل فى قليب[٣] من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرَّوَاء[٤] حتى كَفَى الجيش .

وبعث رسول الله ﷺ خِرَاشَ – بكسر الخاء – بن أمية الخزاعى رسولاً إلى أهل مكة يعلمهم أنه جاء معتمرًا لايريد قتالاً فلما كلمهم عقروا جمله وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش[٥] فخلوا سبيله حتى أتى الرسول ﷺ فدعا عمر – رضى الله عنه – ليبعثه فقال : يارسول الله ،إن القوم عرفوا عداوتى لهم وغِلَظى عليهم وإنى لا آمن ، وليس بمكة أحد من بنى عدىّ يغضب لى إن أوذيت ، فَأَرْسِل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وهم يحبونه ، وإنه يُبَلِّغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى قريش وقال له – عليه الصلاة والسلام – : أخبِرْهم أنَّا لم نأت لقتال وإنما جئنا عُمَّارًا ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره – عليه الصلاة والسلام – أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله – سبحانه – يظهر دينه بمكة قريباً ، فذهب عثمان – رضى الله عنه – إلى قريش وكان قد لقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره ، فأتى قريشاً فأخبرهم ، فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت ، وأمَّا دخولكم فلا سبيل إليه ، فقال – رضى الله عنه – : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسوه ، فبلغ رسول الله والمسلمين أن

---

(١) خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

(٢) حبسها حابس الفيل : أى : أن الله الذى منع فيل أبرهة أن يشترك فى هدم الكعبة حبسها ومنعها كذلك أن تتجاوز هذا المكان لحكمة يعلمها الله – سبحانه وتعالى – .

(٣) القليب : هو البئر قبل أن تبنى بالحجارة .

(٤) الرواء : الكثير .

(٥) الأحابيش : هم الأعراب الذين حول مكة ، حبشى – بالضم – جبل أسفل مكة ، إليه تنسب أحابيش قريش ، لأنهم تحالفوا : إنهم ليد على غيرهم ، ما سجى ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى .

عثمان قد قُتل ، فقال ﷺ : لانبرح حتى نناجز[1] القوم ، ونادى مناديه ﷺ : ألا إن رُوح القدس (جبريل) قد نزل على رسول الله – عليه الصلاة والسلام – فأمره بالبيعة ، فاخْرجوا على اسم الله – تعالى – فبعضهم بايعه على ألا يفر ، وبعضهم بايعه على الموت ، وبعضهم بايعه على مافى نفس رسول الله ﷺ ولما بايع الناس قال – عليه الصلاة والسلام – : (اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله) فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم ، ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا عثمان – رضى الله عنه – وجماعة من المسلمين ثم جرى السفراء بين رسول الله ﷺ و كفار قريش وطال التراجع والتنازع إلى أن جاء سهيل بن عمرو العامرى فقاضاه على أن ينصرف – عليه الصلاة والسلام – عامه هذا حتى لايتحدث العرب أنَّا أخذنا ضُغطة[2] ، فإذا كان مِنْ قابِلٍ أتى ﷺ معتمرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح حاشا السيوف فى قُرِبها ، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج ، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل الناس ويأْمن بعضهم بعضاً ، وعلى أنَّ من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ، فقالوا : يارسول الله ،أنكتب هذا ؟ قال : نعم إنه مَنْ ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، فجاء عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقال : يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال :(بلى) قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : (بلى) قال : ففيم نعطى الدَّنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : (يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا) فانطلق عمر فلم يصبر متغيِّظا ، فأتى أبا بكر فقال له ما قاله لرسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه ، فقال : يارسول الله أوَ فَتْحٌ هو ؟ قال : (نعم) فطابت نفسه ورجع ...

حقًّا لقد كان صلح الحديبية فتحاً عظيماً ، فبعده دخل كثير من العرب فى الإسلام وجاءت

---

(١) المناجزة فى الحرب : المبارزة .

(٢) ضغطة : قهرا .

الوفود إلى رسول الله ﷺ من جهات شتى تدخل فى دين الله ، وما ظنه بعض المسلمين كعمر - رضى الله عنه - أنه دنيّة ونقيصة وذل فى دينهم ما كان إلا عزة ومنعة ، فقد صح أن رسول الله ﷺ بعد أن رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - وهو رجل من قريش قد أسلم - فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به ، وفى الطريق خدع أبو بصير أحد الرجلين وأخذ سيفه وقتله به ، وفرّ الآخر إلى المدينة ، وقال لرسول الله ﷺ : قد قتل - والله - صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يارسول الله قد - والله - أوفى اللهُ ذمتك وقد رددتنى إليهم ، ثم نجانى الله - تعالى - منهم ، فقال ﷺ : (ويل أُمّه مِسْعر[1] حرب لو كان معه أحد) فلما سمع أبو بصير ذلك عرف أن رسول الله ﷺ سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف[2] البحر ، ولحق به - هربا من قريش - أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وكان قد جاء إلى رسول الله ﷺ مسلما فى الحديبية بعد الصلح ، فطلب أبوه سهيل بن عمرو أن يرده رسول الله ﷺ إليه إنفاذاً للعهد ، ففعل الرسول ذلك ودعا لأبى جندل أن يجعل الله له مخرجاً .

ولحق بأبى بصير وبأبى جندل من كان يسلم من قريش ، حتى اجتمعت منهم جماعة فما يسمعون بعير خرجت من قريش إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم جزاء ما أصاب المسلمين على أيديهم من القتل والتعذيب وأخذ الأموال ظلماً ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم ، وقالوا له : اضممهم إليك حتى نأمن ، ففعل ﷺ وأجابهم إلى ما طلبوا .

ومما تجدر الإشارة إليه والتنويه به ما حدث بعد فراغ الرسول ﷺ من إتمام عقد صلح الحديبية أنه قال لأصحابه : (قوموا فانحروا ثم احلقوا) فما قام رجل منهم حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على زوجه السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - فذكر لها ما لقى من الناس ، قالت له : يا نبىّ الله أتحب ذلك ؟

---

(١) مسعر حرب : موقد نار حرب .
(٢) سيف البحر - بالكسر - : ساحله .

اخرج فلا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك : نحر بيده ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا .

لقد رضى الله عن المؤمنين وقبل منهم مبايعتهم لرسول الله ﷺ ومعاهدتهم له على السمع وبذل الطاعة بما رضوا به ورضخوا له من بيع أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، مع علمه – سبحانه – بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص فى مبايعتهم وحبهم للإسلام وحرصهم عليه ونصرتهم له ، فأنزل – جل شأنه – الطمأنينة وسكون القلب عليهم بصدق وعده وتحقق جزائه وأثابهم وجزاهم على تلك البيعة (فَتْحاً قَرِيباً) هو فتح خيبر والصلح مع أهلها ، بعد عودتهم من الحديبية مباشرة .

وفى تقييد البيعة بأنها كانت تحت الشجرة إشارة إلى عظم منزلتها لدى الله لأنها كانت امتثالا لأمر رسوله ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل – عليه السلام – وأمره بها ، ولم تكن لخوف منه – عليه الصلاة والسلام – ولذا استحقت رضاه – تعالى – الذى لايعادله شئ ، وقد ترتب على هذا الرضا من الثواب مالا يكاد يخطر على بال ، ويكفى فى ذلك ما أخرج أحمد عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال : (لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)كما صح برواية الشيخين وغيرهما أنه ﷺ قال لهم : (أنتم خيرُ أهل الأرض) .

١٩ – (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) :

أى : ومنحهم – سبحانه – مع هذا الفتح والصلح غنائم كثيرة وأموالا وفيرة أفاءَ الله بها على المسلمين من خيبر ، فجمع الله لهم بهذا الصلح أمناً واطمئناناً على نفوسهم من جانب هؤلاء اليهود مع رزق واسع وخير عميم ، والفضل فى هذا كله لله – سبحانه – فهو العزيز الذى لايغالب ولا يُقهر (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) والحكيم : الذى لا تجرى أحكامه وقضاياه إلا على مقتضى الحكمة .

هذا ، وقد قسم النبىّ ﷺ غنائم خيبر بين المقاتلين فأعطى للفارس سهمين وللراجل سهماً واحدًا .

(وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ
وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ
ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ) : دفعها ومنعها أن تحول بينكم وبين اغتنامها..

(آيَةً) : علامة وأمارة .

(قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا) : قد قَدَرَ الله عليها واستولى .

(لَوَلَّوُاْ الْأَدْبَارَ) : لانهزموا وأعطوكم ظهورهم هرباً منكم .

(وَلِيًّا) الولىّ : من ينفع برفق ولين .

(نَصِيرًا) النصير : من ينفع بعنف .

(سُنَّةَ اللهِ) : طريقة الله .

(خَلَتْ) : مضت وسلفت .

(تَبْدِيلاً) : تغييراً .

التفسير

٢٠ - (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيمًا) :

أى : وعدكم الله - أيها المسلمون - ووعد الله لايتخلف ؛ إذ الخلف فى الوعد كذب وحاشا لله ذلك .

أى : وعدكم - سبحانه - بمغانم كثيرة من أموال وسلاح وأرض وسبى تأخذونها من الكفار فى مستقبل أيامكم إلى يوم القيامة إذا تحققت فيكم صفات المؤمنين ، إذ قد وعد الله رسله والمؤمنين النصر على أعدائهم ، قال - تعالى - : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »[1] .

(فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ) أى : فقدمَ لكم مغانم خيبر عاجلة دون مشقة أو قتال تطييبا لخاطركم ، ومنع أهل خيبر ومن جاء لنصرتهم من بنى أسد وغطفان أن ينالوكم بسوء ؛ حيث قذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا على أعقابهم وولوا الأدبار هاربين فارين فزعا وخوفاً . (وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) أى : ولتكون هذه الغنائم أمارة وعلامة للمؤمنين يعرفون بها أنهم من الله بمنزلة عظيمة ومكانة رفيعة ، وأنه - سبحانه - كفيل بنصرهم والفتح عليهم ، أو يعرف بها المؤمنون صدق الرسول ﷺ فى وعده إياهم فتح خيبر وما يلى ذلك من فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، (وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيماً) أى : ويثبتكم الله على الهدى والطاعة ولا يفتنكم فى دينكم ، أو يزيدكم هدى وتقوى ؛ فإن قوماً هذا شأنهم وفيهم رسول الله ﷺ جدير بهم أن يكونوا على الجادّة والصراط السوىّ والطريق المستقيم .

٢١ - (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) :

أى : وأعطاكم ومنحكم غنائم أخرى غير ما غنمتموه من خيبر وهى غنائم هوازن فى

(١) سورة غافر الآية : ٥١

غزوة حنين ، إذ لم تستطيعوا اغتنامها والحصول عليها وقت أن ركنتم إلى كثرتكم ، واعتززتم بقوتكم ، واعتمدتم على كثرة عددكم وقلة عدوّكم فقلتم : لن نغلب اليوم عن قلة ، وكان الجيش الإسلامى فى اثنى عشر ألفاً وجيش الكفار فى أربعة آلاف ، فلم تغن عنكم هذه الأعداد شيئاً حتى ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم الأدبار منهزمين ، ثم أدركتكم عناية ربكم ـ سبحانه ـ فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وملأ قلوبهم اطمئناناً وثقة فى الله ـ جل وعلا ـ وأنزل جنوداً من الملائكة لم تبصروها فكانت عوناً لكم على عدوّكم وعذّب الله الذين كفروا فهزمهم وأعطاكم غنائمهم بعد أن أحاط بها وحفظها لكم ومنعها من سواكم ؛ والله ـ سبحانه ـ قدير لا يعجزه ولا يفوته شىء فى الأرض ولا فى السماء ولا فيما وراء ذلك مما لا نعلمه ، فغلبة المؤمنين على هؤلاء الكفار واغتنام أموالهم أمر واقع لامحالة إذ قد حكم به الله وقضاه .

٢٢ ـ (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

أى : ولو امتنع المشركون وغيرهم عن أن يصالحوكم ، وأصروا على قتالكم وحاربوكم لانهزموا وفرّوا وأعطوكم أدبارهم وظهورهم تُعْمِلون فيها أسلحتكم قتلاً وجرحاً ، ولأمكنكم منهم أخذاً وأسراً ، ثم هم مع ذلك لا يجدون من وَلِىّ يتولى أمرهم ويحرسهم من بأس الله على أيدى المؤمنين ، ولايجدون أحداً ما ينصرهم ويقاتل معهم ، قال الإمام الفخر الرازى : أريد بالولى : من ينفع باللطف . وبالنصير : من ينفع بالعنف ، أى : لا ينالون ولا يصيبون عوناً من أحد يدفع عنهم برفق ولين أو يقف بجانبهم يحمل السلاح ويخوض معهم الحرب فى قتالهم للمؤمنين .

٢٣ ـ (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) :

أى : سنّ الله ـ سبحانه ـ غلبة أنبيائه ونصرتهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ سنة وطريقة قديمة فيمن مضى من الأمم ، قال ـ تعالى ـ : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى (١) » والمراد :

---

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة .

أن سنته – تعالى – أن يكون النصر والعاقبة لأنبيائه – عليهم السلام – ولن تتغير سنة الله وطريقته معك ، فالغلبة والعاقبة لك عليهم لامحالة .

وفى هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وإنزال للطمأنينة على قلوب المؤمنين ، وبشارة ووعد بأن النصر لهم ، كما أن فيه تهديدا للمشركين بأن الدائرة تدور عليهم .

(وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ
مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(كَفَّ) : دفع ومنع .

(بِبَطْنِ مَكَّةَ) المراد : الحديبية .

(أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) : أمكنكم منهم وجعلكم ذوى غلبة تامة عليهم .

(وَٱلْهَدْىَ) : ما يهدى ويساق إلى البيت الحرام من النَّعَم تقربًا إلى الله .

(مَعْكُوفًا) : محبوسًا وموقوفًا .

(تَطَئُوهُمْ) : تدوسوهم بأقدامكم ، والمراد : أن تبيدوهم وتهلكوهم .

(مَعَرَّةٌ) : مكروه ومشقة ، من : عرَّه بمعنى عراه إذا دهاه بما يكره ويشق عليه . وقيل : من العُرّ ، وهو الجرب الصعب اللازم .

(تَزَيَّلُواْ) : تفرقوا وتميز بعضهم عن بعض .

التفسير

٢٤ - (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) :

أخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وغيرهم عن أنس بن مالك قال : لَمَّا كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة فى السلاح من قِبل جبل التنعيم يريدون غِرة[1] رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا ، فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...) إلخ الآية ؛ فهذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كفّ أيدى المشركين عنهم فى الحديبية فلم يصل إلى المسلمين منهم سوءٌ كما منع - سبحانه - أيدى المؤمنين عن المشركين مع تمكنهم منهم فلم يقاتلوهم ، وحفظ كلاًّ من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خير للمؤمنين ، وعاقبة كريمة لهم فى الدنيا والآخرة ، والله - سبحانه - بصير بكم وبأعمالكم - أيها المؤمنون - يعلم مافيه الخير لكم ، ولذلك منعكم عن قتال المشركين حفظا لكم ورحمة بكم ، ورعاية لحرمة بيته العتيق من أن تراق فيه الدماء وتزهق الأرواح ، كما أن فى هذا الكف أيضاً إبقاءً على قوم لكم بهم رحم وقربى ، ولعل الله يهدى بعضهم إلى الدخول فى الإسلام .

٢٥ - (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ...) الآية :

---

(١) الغرة - بالكسر - : الغفلة ، أى : يريدون أن يصادفوا من رسول الله ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم. إه : القرطبى .

جاءت هذه الآية الكريمة للإشارة إلى أن الاختلاف بين المؤمنين والكفار باق ، والنزاع قائم ، والعداوة مستمرة ، ولم ينته ما بينهما بالاتفاق والصلح ومنع أيدى كل فريق عن الآخر ، إذ أن هؤلاء لايزالون على كفرهم ، وإمعانهم فى عداوتكم ، فلهذا قاموا بصدكم ومنعكم عن دخول المسجد الحرام للزيارة والاعتمار ، مع أنهم قد علموا أنكم لا تريدون بهم شراً فقد سُقْتم الهدى من البدْن إلى البيت الحرام ، وعكَفتموها وحبستموها عليه قربى وزلفى لله — سبحانه وتعالى — فقد أشعرتموها فحززتم أسنمتها حتى سالت منها الدماء ليعلم أنها هدى ، فمنعوا تلك البدن أن تبلغ المحل الذى اعتاد زُوَّار بيت الله وقُصَّاده أن يذبحوها فيه وهو منى[1] ، وقد سبق أن حدثهم فى هذا الشأن الحليس بن علقمة الكنانى ، وكانوا قد أرسلوه إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : يامعشر قريش لقد رأيت مالا يحل صده ؛ الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، ولكن المشركين ركبوا رءوسهم وقالوا له : اجلس إنما أنت أعرابى لاعلم لك .

أى : أن هؤلاء الكفار قد ازدادوا كفراً وعداوة لكم فلا تأمنوهم ، وإنما كان كف الله أيديكم عنهم بعد أن أظفركم عليهم وأمكنكم منهم لحكمة يعلمها هو — سبحانه — :

وقد جاء بيانها فى قوله — تعالى — : (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى : ولولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين يقيمون بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عالمين بهم وبأماكنهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، كأن يقول المشركون : إن المسلمين قد فعلوا بأهل دينهم من الإهلاك مثل ما فعلوا بنا ، وكذلك ما يصيب المسلمين وينالهم من الضيق والمشقة من أن يقتلوا إخوانهم فى الإسلام وهم عدتهم على أعدائهم ، فضلا عن الرحمة التى تسود وتعم المسلمين فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، أى : لولا كراهة إهلاككم المؤمنين لما كف أيديكم عن قتال أهل مكة من المشركين .

---

(١) منى : مكان قرب مكة ، وسمى بذلك لما يمنى به من الدماء ، أى : يراق .

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ) أى :كفَّ أيديكم عنهم ليدخل الله فى رحمته الواسعة من يريده – جل شأنه – من المؤمنين الذين يعيشون بين المشركين فى مكة ، فيجعل لهم بعد خوفهم أمنًا ، وبعد ذلهم عزًّا ، فيؤدون فى ظل ذلك عباداتهم لربهم على أكمل وجه وأتم صورة فى علانية دون استخفاء ، أو : لِيَمُنَّ الله ويدخل من يشاء من المشركين فى رحمته ، وذلك باعتناقهم الإسلام بعد أن رأوا ما عليه المؤمنون من تواد وتراحم وخلق كريم ودين قويم .

(لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) أى : لو تفرق هؤلاء المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذبنا هؤلاء الكفار فى الدنيا بالقتل والسبى وغير ذلك من ضروب التنكيل الشديد والإيلام العظيم .

(إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(الْحَمِيَّةَ) : الكبر والأنفة .

(سَكِينَتَهُ) السكينة : هى الوقار والحلم .

(أَلْزَمَهُمْ) : اختار لهم وطلب منهم .

(كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ) : هى : لَا إِلَٰهَ إِلا الله ، كما جاء فى حديث الترمذى وغيره مرفوعًا ، وقيل غير ذلك .

(أَحَقَّ بِهَا) أى : أولى بها من غيرها ومتصفين بمزيد استحقاق لها .

(وَأَهْلَهَا) : وأصحابها المستأهلين لها .

التفسير

٢٦ - (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ . . .) الآية :

هذه الآية الكريمة تحكى ما كان من المشركين عند كتابة صلح الحديبية وتوثيقه ، وذلك أن النبىّ ﷺ دعا عليا - كرم الله وجهه - فقال له : اكتب (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب (باسمك اللهم) فكتبها ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : (اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : (والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو) إلى آخر ما جاء فى كتاب الصلح .

أى : تذكر - يا محمد - وذكر المؤمنين بذلك الوقت الذى ملأ فيه الكافرون قلوبهم كبرًا وأنفة بعدت بهم عن الحق ، ونأت عن الصراط المستقيم ، حيث لم يذعنوا لما جاء به رسول الله ﷺ ورفضوا الإقرار بالبسملة والتسليم برسالة الرسول ﷺ ولم يرضوا بكتابة ما أملاه رسول الله ﷺ فى وثيقة صلح الحديبية ، ولكن الله برعايته ولطفه أدرك المؤمنين بكريم عطفه وعظيم فضله ، فأنزل الطمأنينة والوقار والحلم عليهم، وثبتهم وأرضاهم وشرح صدورهم إلى ما أمر به رسول الله ﷺ ولم يدخل قلوبهم ما دخل فى قلوب المشركين من الحمية .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن الله - تعالى - أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فأشار إلى ثلاثة أشياء :

(أحدها) : جعل ما للكافرين بجعْلهم فقال : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) ، وجعل ما للمؤمنين بِجَعْلِ الله - تعالى - فقال : (فَأَنزَلَ اللهُ) وبين الفاعِلَيْن مالا يخفى .

(ثانيها) : جعل للكافرين الحمية ، وللمؤمنين السكينة ، وبين المفعولَيْن تفاوت .

(ثالثها) : أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) ، وقال : (سَكِينَتَهُ) وبين الإضافتين ما لا يذكر ، ثم استطرد الإمام الفخر فقال : قال الله في حق الكافر : (جَعَلَ) ، وفي حق المؤمن : (أَنزَلَ) ولم يقل : خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال ، أما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزائن رحمته معدَّة لعباده فأنزلها . وقال : (الْحَمِيَّةَ) ثم أضافها بقوله : (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) ، لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة ، وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحًا ، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية ، وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لِحُسْنٍ اعتبار ، فقال : (سَكِينَتَهُ) اكتفاء بحسن الإضافة .

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) أي : اختارها لهم وألزمهم بها - سبحانه - تكريماً وتشريفًا لهم ، وكانوا أحق وأولى من سواهم وأجدر من غيرهم بهذا التكريم ؛ فهم صفوة خلقه وأصحاب رسوله - رضي الله عنهم - المختارون لدينه الحنيف . وقيل : هم أحق بها في الدنيا وهم أهلها بالثواب في الآخرة .

وكلمة التقوى هي : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، ومُحَمَّد رَسُول الله) التي أبى سهيل ابن عمرو أن تكتب في صلح الحديبية ، وقيل : هي لَا إِلٰهَ إلا الله ، والله أكبر ، وقيل : هي الثبات والوفاء بالعهد .

(وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) أي : يعلم - سبحانه - حق كل شيء فيسوق ويعطي الحق لمن يستحقه ، ويمنح العطاء من يستأهله ، وذلك حسب ما تقتضيه حكمته وتوجبه رحمته .

(لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾)

سبب النزول :

أخرج ابن المنذر وغيره أن رسول الله ﷺ رأى فى المنام أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك إلى العام القابل بسبب صلح الحديبية قال بعض المنافقين – استهزاء – : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . فنزلت هذه الآية .

التفسير

٢٧ – (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ . . .) الآية :

أى : لقد أرى الله – سبحانه – رسوله الرؤيا الصادقة ، ورؤيا الأنبياء كلها كذلك صادقة محققة ؛ إذ هى أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء ، وهذه الرؤيا ملتبسة ومرتبطة بالحق ؛ وهو الغرض الصحيح والحكمة البالغة ، فقد أظهرت وأبانت حال المتردد والمتزلزل فى إيمانه ، وحال المطمئن الراسخ فيه الذى انشرح به صدره .

(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ) أى : والله لتدخلن المسجد الحرام ؛ ويكون دخولكم إياه بمشيئته – سبحانه – وحده ، ولا يرجع ذلك إلى قوة المسلمين وجلادتهم ومصابرتهم ولا إلى إرادة المشركين ومشيئتهم .

وفى تعليق الدخول على مشيئة الله مع أنه – سبحانه – خالق الأشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها ليُعَلِّم العبادَ أن يقولوا ذلك عندما يريدون فعل شىء أو تركه تأدُّبًا معه – جل شأنه – وتأكيدًا لقوله – تعالى – : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ »(١). قال ثعلب : استثنى – سبحانه وتعالى – فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، أى : علق الدخول على مشيئته ، ليفعل الخلق مثل ذلك فيما لا يعلمونه .

(آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) أى : أنكم تدخلون المسجد الحرام آمنين متمكنين من أدائكم النسك وتصلون به إلى غايته ؛ يحلق بعضكم ويقصر آخرون .

هذا ، والحلق أفضل وأولى بالرجال ، والتقصير أحق بالنساء .

(لَا تَخَافُونَ) قد تكفل الله – سبحانه – لرسوله ومن معه بكمال الأمن بعد تمام النسك ، أى : تدخلون آمنين تحلقون وتقصرون ، ويبقى ويدوم أمنكم بعد خروجكم من الإحرام فأنتم فى حفظ الله ورعايته فى حال الإحرام وبعده .

(فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) أى : فعلم الله ما فى صلح الحديبية من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموا أنتم به ؛ عَلِمَهُ – سبحانه – واقعًا وحاصلًا ، وقد علمه أزلًا قبل وقوعه وهو بكل شىء عليم .

(فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) أى : جعل الله لكم من قبل دخولكم المسجد الحرام محلقين مقصرين– جعل لكم – من دون ذلك ومن قبله فتحًا عظيمًا قريبًا هو فتح خيبر ، وما أصبتم فيه من الغنائم دون قتال ، أو المراد من الفتح القريب : هو صلح الحديبية الذى قال عنه الزهرى : ما فتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ؛ لأنه إنما كان القتال حين يلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا ، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، فلقد

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ، وبعض الآية ٢٤

دخل فى تَيْنِكَ السنتين فى الإسلام مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر ، يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾)

المفــــردات :

(لِيُظْهِرَهُ) : ليعليه ويرفعه .

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) : على كل ما يدين ويتعبد به الناس من حق أو باطل .

التفســـير

٢٨ ــ (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا) :

أى : هو ــ سبحانه ــ الذى أرى نبيه الرؤيا الصادقة هو ــ كذلك ــ الذى أرسله وبعثه مصاحبًا للهدى والدليل الواضح والحجة البالغة والمعجزة الباهرة ، وأرسله بالدين الحق الذى لا يأتيه الباطل ، ولا ينال منه الزيف ، ولا يعتريه التحريف ، ليعليه ــ سبحانه ــ ويرفعه على كل ما يدين الناس ويتعبدون به من الشرائع والملل من الحق والباطل ، وإظهار الإسلام على الحق من الشرائع والملل يكون بنسخ بعض أحكامه المستبدلة والمتغيرة. بتبدُّل الأعصار والأزمان ، وأما إظهاره على الباطل فيكون ببيان بطلانه وزيفه .

هذا ، والإسلام بمبادئه وتعاليمه وشرائعه يسمو فى كل زمان ومكان على كل شرعة ومنهاج ، وذلك عند أصحاب الفطر المستقيمة والقلوب النقية السليمة ، كما أنه ـ كذلك ـ عند من له أدنى بصر وبصيرة ، ولا يضير الإسلام أن خالفه المخالفون ، فهم فى واقع أمرهم معترفون فى داخلهم ، ولكنهم يستكبرون فينكرون ، وصدق الله القائل : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »[1] . (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) هذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بأنه ـ سبحانه ـ لا محالة سيحقق له ما وعده به من إظهار دينه على جميع الملل والنحل وكفى الله شهيدًا لنبيه ﷺ على ذلك ، وشهادته له تكون بإظهار المعجزات على يديه ، وقيل : (شَهِيدًا) على رسالته ﷺ ، وفى الآية ـ على هذا ـ تسفيه للكفار الذين أبَوْا أن يكتبوا فى عقد صلح الحديبية (محمد رسول الله) .

(مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾)

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٣

المفـــردات :

(يَبْتَغُونَ) : يطلبون فى جد واجتهاد .

(سِيمَاهُمْ) : علامتهم وأمارتهم التى تميزهم .

(مَثَلُهُمْ) : وصفهم العجيب الشأن الجارى مجرى المثل فى الغرابة .

(شَطْأَهُ) شطء الزرع : فروخه ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه ، أى : جانبيه .

(فَآزَرَهُ) : فأعانه وقواه .

(فَاسْتَغْلَظَ) : فصار من الدقة إلى الغلظ .

(فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) : استقام على قصبه . والسُّوق : جمع ساق .

التفسير

٢٩ – (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . .) الآية :

أى : هو محمد الذى وصف بالرسالة فى قوله – تعالى – : (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) ، وفى قوله – جل شأنه – : (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ) وجاء النص فى هذه الآية بالتصريح بذكر اسم الرسول ﷺ تفخيمًا لشأنه وزيادة فى إنزال السكينة والطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، بعثًا للرجاء لدى بعض الشاكّين المترددين كى يثبتوا على الإسلام ، فضلًا عن أن ذلك يغيظ قلوب الحاسدين والحاقدين على رسوله ﷺ ، وجاء وصف الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة – رضوان الله عليهم – بأنهم أشداء على الكفار لقطع أمل الكفار ورجائهم فى أن يداهنهم أو أن ينزل ويتجاوز عن بعض ما جاء به ، وقد أمر الله رسوله ﷺ فى غير هذه الآية بالغلظة على الكفار فقال : « يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ »[1] كما وصفه ربه – جل وعلا – بالرحمة والرأفة بالمؤمنين فقال : « لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ

---

(١) من الآية رقم ٩ : من سورة التحريم.

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (١) أما صحابته – رضى الله عنهم – فشأنهم معه ﷺ هو الطاعة والتأسى وبذل النفس والمال فى سبيل الله ، وقد قال الله فى حقهم : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٢). وشدة الرسول – عليه الصلاة والسلام – ومن معه على الكفار تكون عند ملاقاتهم فى الحروب ، فلا تضعف عزائمهم ولا تلين قناتهم ، فالمؤمن قد وعده الله إحدى الحسنيين إما الشهادة والموت فى سبيل الله ، أو الظفر والنصر ، أما فيما يتصل بمعايشة الكفار غير الحربيين فينبغى أن يكون المسلم على حذر منهم ، لأنهم لا يألون جهدًا فى المكر والكيد للمسلمين والنيل منهم ، وصدق الله القائل : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ » (٣) وهذا لا يمنع حسن الجوار معهم والبر بهم والعدل فيهم وقوله – تعالى – : (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) أى : يتراحمون فيما بينهم ، فلا يبغى بعضهم على بعض ؛ فهم فى تعاطف وتوادّ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وعن الحسن – رضى الله عنه – : بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه .

أخرج أبو داود عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما » كما أثر (أن أحد الصحابة قدم على رسول الله فى المدينة فاعتنقه وقبّله) غير أن الإمام النووى فى كتابه الأذكار قال فى التقبيل وكذا المعانقة : لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه ، ومكروه كراهة تنزيه فى غيره ، ولعل دليله فى هذا ما روى أن رسول الله ﷺ – فى حديث أخرجه الترمذى عن أنس فى زيادة رزين – لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : (لا) . قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : (لا ، إلا أن يأتى من سفره) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨

(٢) سورة المائدة ، من الآية : ٥٤

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ١١٨

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) الخطاب هنا لكل من تتأَتى منه الرؤية ، أى : تبصر وترى منهم كثرة الصلاة فى أغلب أحوالهم وكثرة أحيانهم ليلا ونهارًا ؛ ينبئ ويدل على ذلك التعبير بالفعل المضارع (تَرَاهُمْ) فإنه يدل على استمرار الفعل وتجرده (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) أى : يرجون فى جد واجتهاد بانكسار قلب ، وذلة نفس أن يمنحهم الله من فضله ويمن عليهم من رضوانه تفضلًا منه وتكرمًا ، لأَنهم لا يرون لهم أجرًا على ما قدموا من عمل طيب ، وأن ما قاموا به من طاعة وعبادة فهى – فضلًا على أنها بتوفيقه – دون أقل نعمة تفضل الله بها عليهم ، فنعم الله وأَفضاله كثيرة تجل وتعظم عن الإحصاء والحصر ، ويقف الإنسان منها عاجزًا عن عدّها وبيانها « وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] .

(سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) أى : العلامة التى تميز المؤمنين عن سواهم أن ترى فى وجوههم سمة حسية وأَمارة تنبئ عنهم وتدل عليهم ، وذلك يكون من كثرة ما يسجدون لربهم . قال جار الله الزمخشرى فى الكشاف : وكان كل من العَلِيَّيْنِ : على بن الحسين زين العابدين ، وعلى بن عبد الله بن عباس أَبى الأَملاك يقال له : ذو الثَّفَنَات[2] ؛ لأَن كثرة سجودهما أحدثت فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير .

وعن سعيد بن جبير : هى سمة فى الوجه ، فإن قلت : فقد جاء عن النبىّ ﷺ : (لَا تعلبوا صوركم)[3] .

وعن ابن عمر – رضى الله عنه – أنه رأَى رجلًا قد أثر فى وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تَشِنْ صورتك . قلت : ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأَرض لتحدث فيه تلك السمة ، وذلك رياءٌ ونفاق يستعاذ بالله منه ، ونحن نتحدث فيما حدث فى جبهة السَّجاد الذى لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله – تعالى – وعن بعض المتقدمين : كنا نصلى فلا يُرى بين أَعيننا شىءٌ ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الرءُوس أم خشنت الأَرض ؟ وإنما أَراد من تعمد ذلك للنفاق ، وقيل : هو صفرة

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٢) ثفن البعير : غلظت وصلبت المواضع التى يبرك عليها .

(٣) العلب : هو الأثر ، أى : لا تعيبوا صوركم بما تحدثون من أثر كما يثلم ويكسر حرف الإناء والسيف .

الوجه من خشية الله ، وقال بعضهم : ليس هو النحول والصفرة ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبين ذلك للمؤمنين ولو كان فى زنجى أو حبشى . وعن عطاء – رحمه الله – استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل ، وفى الأثر : (مَنْ كثُرتْ صلاتُهُ بِالليْلِ حَسُنَ وجْهُهُ بالنَّهار) ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله – تعالى – : (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) : « النور يوم القيامة » . قال الإمام الآلوسى : ولا يبعد أن يكون النور علامة فى وجوههم فى الدنيا والآخرة ، لكنه لما كان فى الآخرة أظهر وأتم خصه النبىّ ﷺ بالذكر .

(ذَٰلِكَ) إشارة إلى ماسبق من صفاتهم الحميدة وشمائلهم العظيمة ، وجاء اسم الإشارة (ذَٰلِكَ) الذى يدل على البعد للإيذان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم فى الكمال والفضل .

وقوله – تعالى – : (مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ) أى : وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى المثل لكونهم على صورة فريدة طيبة ومثال غريب لتميزهم فى عباداتهم ، وأنهم أُسوة لسواهم ، وقدوة يحتذيها غيرهم ممن يأْتى بعدهم ، وجاء هذا الوصف الجليل لهم فى الكتاب الذى أنزله الله على سيدنا موسى – عليه السلام – وهو التوراة .

(وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) أى : وصفتهم العظيمة فى الإنجيل الذى أنزله الله على سيدنا عيسى – عليه السلام – كزرع أخرج فِراخه من أغصان وأفنان وأوراق ، فتفرعت فى جانبيه فأعانه ذلك وقوّاه فصار من الدقة إلى الغلظ ، واشتد فاستقام وانتصب هذا الزرع على أُصوله وقصبه وسيقانه .

(يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) أى : معجبًا لهم بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره ، وخص الله – سبحانه – الزُّرَّاع بالذكر ؛ لأنهم أعرف من غيرهم بِجيِّد الزرع من رديئه ، وبِقَوِيِّه من ضعيفه ، ويحيطون علمًا بآفاته وعلله وعيوبه ، فإذا أعجبهم وظفر باستحسانهم له – وهم أهل الخبرة فيه – فسواهم أولى وأجدر بالإعجاب ، وأحق أن يحظى لديهم بما يملأُ نفوسهم رضًا عنه وانفعالًا به .

وذكر ابن جرير ، وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . نقول : وعلى هذا يكون الوصف للصحابة وحدهم .

وقال صاحب الكشاف : هو مثل ضربه الله – تعالى – لبدء الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم ؛ لأن النبىّ ﷺ قام وحده ثم قواه الله – تعالى – بمن معه كما يقوى الطاقة الأُولى ما يحتف بها مما يتولد منها .

وظاهر قول الزمخشرى أن الزرع هو رسول الله ﷺ ، والشطء هو الصحابة ، ولكل وجهة .

(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) أى : فعل الله – تعالى – هذا لمحمد ﷺ ولأصحابه ليغيظ بهم الكفار ويجلب لهم الحسرة والندامة .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) أى : وعد الله أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا بالله حق الإيمان وعملوا من الصالحات ما جعلهم أهلًا لصحبة رسوله ﷺ وعدهم وبشّرهم بمغفرة منه لما عسى أن يكون قد بدر منهم من ذنوب هى إلى الصغائر أقرب ، كما وعدهم وبشرهم بأجر عظيم وثواب كريم فى الآخرة .

وقد استنبط الإمام مالك من هذه الآية تكفير الذين يبغضون الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – فإن الصحابة يغيظونهم ، ومن غاظه الصحابة فهو كافر ، ووافقه كثير من العلماء ، وفى كلام السيدة عائشة – رضى الله عنها – ما يشير إلى ذلك ، فقد أخرج الحاكم وصححه عنها فى قوله – تعالى –: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) قالت : أصحاب رسول الله ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبّوهم .

أعاذنا الله من ذلك ، وثبت قلوبنا على محبته ﷺ ومحبة أصحابه الذين قال فيهم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » ، وقال : « لا تسبوا أصحابى ؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه »[1] خرجهما البخارى – والله أعلم .

---

(١) أى : لم يدرك مد أحدهم ولا نصف المد إذا تصدق بمثل جبل أحد ذهبا ، والمد – بالضم – مكيال هو رطلان أو رطل وثلث ، أو ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه سمى مدا ، وقد جربت ذلك فوجدته صحيحا. القاموس المحيط .

« سورة الحجرات »

مدنية وآياتها ثمانى عشرة

مجمل معانيها :

تضمنت هذه السورة ألوانًا من الأدب الرفيع ، منها وجوب انتظار حكم الله ورسوله فى أمور الدين وعدم سبقه بالحكم ، وأن لا يرفع المسلمون أصواتهم فوق صوت النبىّ ﷺ ولا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، وبيان أن الذين يخفضون أصواتهم عنده لهم مغفرة وأجر عظيم ، كما تضمنت أن نداءه ﷺ من وراء الحجرات فى وقت راحته لا يجوز وأن على أولئك المنادين أن ينتظروه حتى يخرج إليهم ، ليتحدثوا معه فيما جاءوا من أجله ، وحذرت من قبول المؤمنين خبر الفاسقين حتى يتحققوا من صدقه ، لكيلا يصيبوا قوما بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين ، وأوجبت عليهم الإصلاح العادل بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، فإن لم يتم الصلح قاتلوا الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله – تعالى – : (فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

ونهت عن سخرية بعضهم من بعض ذكورًا كانوا أو إناثًا ، وعن التعاير بالألقاب ، وأمرت باجتناب كثير من الظن « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ونهت عن التجسس وعن الغيبة ، وبينت أن الله – تعالى – خلق عباده من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب ، فإن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وكشفت كذب بعض الأعراب فى ادعائهم الإيمان ، ودعتهم إلى صدق الإيمان فإن الله بهم عليم (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وجه ارتباطها بما قبلها :

ترتبط سورة الحجرات بسورة الفتح قبلها بعدة روابط ، منها : أنهما مدنيتان ومشتملتان على أحكام ، وأنّ سورة الفتح فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة ، وتلك ختمت

بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا ، وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ وبخاصة مطلعها وهذه تضمنت تشريفا له فى مطلعها ، إلى غير ذلك .

السبب العام لنزول هـذه السورة :

قال القرطبي : قال العلماء : كان فى العرب جفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبيّ ﷺ ، وفى تلقيب الناس ، فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق .

الأسباب الخاصة لنزول آياتها :

تشتمل هذه السورة على عدة أحكام وآداب ، ولكل آية منها سبب اقتضى نزولها ، وسنبين ذلك فى موضعه – إن شاء الله تعالى – .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) : لا تقدموا أمرًا قبل أن يحكم الله فيه ورسوله .

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) : لا تجعلوا أصواتكم أعلى من صوته .

(وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) أى : ولا تساووه فى الجهر كما يساوى بعضكم بعضًا فيه .

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) أى : كراهة أن يبطل ثوابها وأنتم لا تدرون .

التفســـير

١ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

تشتمل هذه الآية على صورة بلاغية ، حيث استعير التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم فى أمر دون اقتداءٍ بكتاب الله وبرسوله ، تصويرًا لشناعته بصورة المحسوس ؛

فمثله كمثل تقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فالمراد من الآية : لا تقطعوا أمرًا ، ولا تجرؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله فيه ورسوله ، فإن ذلك شديد القبح كالذى يسبق سيده فى سيره .

سبب النزول :

اختلف الرواة فى سبب نزول هذه الآية ، فقد روى الواحدى بسنده عن ابن جُرَيْج قال : حدثنى ابن أبى مُلَيْكَة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قَدِم ركبٌ من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلَّا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله – تعالى – : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ) إلى قوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) ورواه البخارى عن محمد ابن الصباح .

وروى المهدوى بسنده أن النبى ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذا مضى إلى خيبر ، فأشار عمر برجل آخر فنزل : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ) .

وروى الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فَسَلِمُوا ، وانكفأوا إلى المدينة فلقوا رجلين من بنى سليم ، فسألوهما عن نسبهما ، فقالا : من بنى عامر لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ، فجاء نفرٌ من بنى سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك عهدًا ، وقد قتل منا رجلان ، فوداهما النبى ﷺ بمائة بعير فى قتلهم الرجلين.. إلى غير ذلك من الأقوال ، ولا نرى مانعًا من حدوث هذه الأسباب جميعًا قبل نزول الآية فلا تعارض بينها ، فتكون الآية قد نزلت بشأنها جميعًا ، ليلتزم أصحابها بالأدب مع رسول الله ﷺ وأن لا يُحْدثوا أمرًا قبل سؤاله وحكمه .

ويقول بعض العلماء : لعلها نزلت من غير سبب ، لتكون دستورًا للمسلمين فى أعمالهم وأقوالهم ، فلا يقدموا طاعة عن وقتها ، ولا يخالفوا عمل رسول الله ﷺ أو قوله فيها ، فهو

إمام أمته وأسوتها : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا »(١) ..

ويدخل فى عموم هذه الآية – كما قال ابن كثير – حديث معاذ قال : قال النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن : « بِمَ تحكم ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأيى ، فضرب فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسولَ الله » .

وقد ختم الله الآية بالتحذير من مخالفة هذا النهى فقال : (وَاتَّقُوا۟ اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى : وخافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه ، فإنه سميع لأقوالكم عليم بها ، وبأعمالكم ، فيجزيكم الجزاء اللائق بامتثالكم أو مخالفتكم .

المعنى الإجمالى للآية :

يا أيها الذين آمنوا اتَّبعُوا رسول الله فى أقواله وأفعاله ، ولا تسبقوه بالحكم فى أمر من أمور الدين أو سياسة الأُمة ، فإن ذلك ليس من حقكم ، بل انتظروه حتى يحكم فيه فهو إمام أُمته ، إن الله عظيم السمع واسع العلم ، فيسمع أقوالكم ، ويعلم بها وبأعمالكم فيجازيكم بالخير إذا امتثلتم ، ويعاقبكم إذا خالفتم .

بعض ما يستنبط من احكام الآية :

تعتبر الآية أصلًا فى إيجاب اتباع رسول الله ﷺ وعدم مخالفته فى قوله أو فعله ، فإنه كما قال – تعالى – : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ »(٢) .

٥ ولهذا قال النبىّ ﷺ فى مرض موته : « مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناسِ » فقالت عائشة لحفصة – رضى الله عنهما – : قولى له : إن أبا بكر رجل أسيف – أى : سريع البكاء – ، وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء ، فَمُرْ عمر فليصل بالناس ، فقال ﷺ : « مُرُوا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ بالناس » .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .
(٢) سورة النجم ، الآيتان : ٣ ، ٤ .

ويفهم من الآية أن كل عبادة مؤقتة بوقت لا يجوز تقديمها عليه ، كالصلاة والصوم والحج .

واختلف فى تقديم الزكاة عن وقت وجوبها ، فأجازه قوم وبه قال أبو حنيفة ، والشافعى ، ومنعه قوم منهم أشهب ، فلا تقدم على وقتها لحظة واحدة .

وقد اعتمد الذين أجازوا تقديمها على وقتها - اعتمدوا - على فعل النبى ﷺ ، فقد استعجل من العباس صدقة عامين ، ولأنه ﷺ قد أقر جمع زكاة الفطر قبل يوم الفطر ، حتى تعطى لمستحقيها قبل يوم الوجوب ، وهو يوم عيد الفطر ، وبهذا القول نقول ، فيجوز إعطاء الزكاة قبل تمام الحول ، فإذا حال الحول وقد نقص المال فما دفعه من الزيادة عن الواجب عليه يعتبر صدقة تطوع ، وإذا زاد كما فى عروض التجارة ، فإنه يستكمل الزكاة بإخراج نصيب هذا القدر الذى زاد .

وقد ختم الله الآية بقوله - سبحانه - : (وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى : وخافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، إن الله سميع لأقوالكم عليم بها وبأعمالكم ، فيجزيكم الجزاء اللائق بامتثالكم أو مخالفتكم .

٢ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

سبب نزول الآية :

روى البخارى والترمذى بسندهما عن أبى مُلَيْكَةَ قال : حدثنى عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قَدِمَ على النبى ﷺ فقال أبو بكر : يارسول الله ، استعمله على قومه [1] ، فقال عمر : لا تستعمله يارسول الله ، فتكلما عند النبى ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر : ما أردت خلافك - قال - : فنزلت هذه الآية : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ ...) الآية ، قال :

---

(١) أى : اجعله واليا وأميرا عليهم .

فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه . قال أبو مُلَيْكَة : وما ذكر ابن الزبير جده – يعنى أبا بكر – فقد كان والد أمه أسماء ذات النطاقين .

وسيأتى فى أسباب نزول الآية التالية رواية تفيد أن أبا بكر – رضى الله عنه – قال : (والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار) .

وهذه قد سبق مثلها فى أسباب نزول الآية التى قبلها ، فتكون قصة أبى بكر وعمر من أسباب نزول الآيتين ، بل والآية التالية كما سيجىء – إن شاء الله تعالى – ويلاحظ على هذه الرواية أن الذى اقترح الأقرع بن حابس هو أبو بكر ، فى حين أن الرواية السابقة تفيد أنه اقترح تأمير القعقاع بن معبد ، وأن الذى اقترح تأمير الأقرع بن حابس هو عمر .

وعلى أى حال فالواقعة صحيحة وإن اختلفت الروايتان فى الشخص الذى اقترح كلاهما تأميره .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : لَمَّا نزلت هذه الآية : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...) إلى (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ، وكان ثابت ابن قيس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أَحْبِطَ عملى ، أنا من أهل النار ، وجلس فى أهله حزينًا ، فتفقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تَفَقَّدك رسول الله ﷺ مالَكَ ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول حَبِط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال . فقال : « لَا ، بل هو من أهل الجنة » قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت ابن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه وقال : (بئسما تقودُون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل) . وجاءت قصته فى الصحيحين عن أنس نحو هذه الرواية .

وقال عطاء الخراسانى : حدثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لَمَّا نزلت (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...) دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبى ﷺ فأرسل إليه يسأل ما خبره ؟ فقال : أنا رجل شديد الصوت ، وأنا أخاف أن يكون حُبِطَ عملى ، فقال ﷺ : « لست منهم بل تعيش بخير » . قالت : ثم أنزل

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فأغلق بابه وطفق يبكى ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجَمَال وأحب أن أسود قومى ، فقال : « لست منهم ، بل تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة » قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيلمة[1] ، فلما التقوا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة ، فثبتا وقاتلا حتى قُتِلَا ، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من المسلمين نائمٌ أتاه ثابت فى منامه فقال له : أُوصيك بوصية ، وإيَّاك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، إنى لَمَّا قُتِلت أمس مَرَّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ فى طِوَلِه[2] ، وقد كفأ على الدرع بُرْمَةً ، وفوق البرمة رَحْل ، فائت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعنى أبا بكر - فقل له : إن عَلَىَّ من الدين كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيق وفلان ، فأتى الرجل خالدًا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها ، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته - قال - : ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت .

رأينا فى تعدد أسباب النزول :

لا نرى مانعًا من أن تكون الآية بسبب رفع الصوت على رسول الله ﷺ من كل من أبى بكر وعمر وثابت بن قيس أو غيرهم ، لتكون قاعدة عامة فى مخاطبة النبى ﷺ توقيرًا له ، ورفعًا لمقامه فوق كل مقام .

وكلُّ ما حدث من رفع الصوت على الرسول قبل نزول هذه الآية لا عقاب عليه ، فلما نزلت وجب الالتزام بها .

معنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : عظموا رسول الله ﷺ إذا حدثتموه ، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم الحد الذى يبلغه

(١) هو مسيلمة الذى ادعى النبوة كاذبا ، وكان خالد بن الوليد قائدا للجيش الذى يقاتله .

(٢) أى : وعند خيمته فرس مربوط بحبل طويل يمرح فيه فى المرعى .

بصوته ، وأن تغضوا وتخفضوا منها ، بحيث يكون كلامه غالبًا لكلامكم ، وجهره باهرًا لجهركم ، حتى تكون مزيته عليكم واضحة ، وسابقة ظاهرة ، وامتيازه بَيِّنًا ، فَلَا تغمروا صوته بلَغَطكم ، ولا تبهروا منطقه بصخبكم، ولا تخاطبوه بيا محمد ويا أحمد ، ولكن قولوا : يا نبي الله ، أو يا رسول الله – انتهوا عمَّا نهيتم عنه – لئلا يتأذى نفسيًّا برفعكم أصواتكم ، واجتنابكم أسلوب التوقير له ، فتحبط أعمالكم ويضيع ثوابكم، وأنتم لا تشعرون بذلك فى دنياكم ، بل تعلمونه فى أُخراكم .

وإذا وصل الجهر بالصوت إلى حد الاستخفاف والاستهانة فذلك كفر – والعياذ بالله – فالغرض من الآية أن يكون صوت المؤمن عند خطابه لرسول الله ﷺ خفيضًا مناسبًا لمقامه وهيبته ، لكن بحيث يسمعه .

ولا يتناول النهى رفع الصوت الذى لا يتأذى به ، وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو وما أشبه ذلك ، ففى الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لَمَّا انهزم الناس يوم حنين : « اصرخ بالناس » .

وكان العباس أجهر الناس صوتًا ، روى أن غارة أتتهم ، فصاح العباس : يا صباحاه فأُسقطت الحوامل لشدة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

زَجْرَ أَبِى عُرْوَة السباعَ إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

وأبو عُرْوة كنية العباس – رضى الله عنه –

وقد أثنى الله على من يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ووعدهم المغفرة والأجر العظيم فقال :

٣– (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) :

أى : إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ حين يكلمونه أو يكلمون غيره

بين يديه إجلالًا له ، أُولئك الذين أَخلص الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأَجر عظيم على خفض أَصواتهم عنده .

ولفظ (امْتَحَنَ) من قولهم : امتحنْتُ الفضة ، أَى : اختبرتها حتى خَلَصتْ ، وروى عن أَبي هريرة أَنه قال : لَمَّا نزلت : (لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَاتَكُمْ ...) قال أَبو بكر : (والله لا أَرفع صوتى إلا كأَخى السِّرار) أَى : إلا كصاحب المسارَّة ، وقال عبد الله بن الزبير : لَمَّا نزلت : (لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَاتَكُمْ ...) ما حدث عمر عند النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ، فنزلت : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ) : يرفعون أَصواتهم من خارج حجرات أَزواجه ﷺ طالبين خروجه إليهم ، وسيأْتى الحديث عنهم .

التفســير

٤ – (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) :

كان الأَعراب ذوى خشونة وجفاء فى أَخلاقهم وطباعهم قبل أَن يدخلوا الإسلام فيرقق طباعهم ويحسن أَخلاقهم .

وكان من عادة رسول الله ﷺ أَن ينام القائلة – أَى : نصف النهار – فجاءَ وفد من أَعراب بنى تميم يفادون أَسراهم عند رسول الله ﷺ فجعلوا ينادونه من وراءِ الحجرات أَن يخرج إليهم دون أَن ينتظروه حتى يخرج من حجرته ، فأَنزل الله عليه تلك الآية .

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) أى : بئس أن يسمى المسلم كافرًا أو زانياً بعد إيمانه .

التفسير

١١ — (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..) الآية :

من أهداف الإسلام العظمى أن يجعل المؤمنين مجتمعا فاضلا يقوم على مكارم الأخلاق ، وقد اشتملت هذه الآية على آداب رشيدة من دستور الإسلام الخلقى ، وبيان ذلك فيما يلى :

نهى الله المؤمنين فى صدر هذه الآية عن سخرية بعضهم ببعض ، والاستهزاء بهم ، والقوم يطلق على الرجال بخاصة ، وقد يدخل النساء فى القوم مجازًا ، ولكن الله شاء أن يعنى بهذه الخصلة ، فنهى النساء عنها نهياً مستقلا عن نهى الذكور لكثرة وقوعها بينهن .

سبب نزول الآية :

اختلف فيه ، فقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذين تقدم ذكرهم فى تفسير أول السورة ، استهزءوا بفقراء الصحابة مثل عمّار وخباب وابن فهيرة ، وبلال وصهيب وسلمان الفارسى ، وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم حين رأوا رثاثة حالهم ، فنزلت فى الذين آمنوا من هؤلاء المستهزئين .

وقيل : نزلت فى عكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلماً ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت ، وقيل غير ذلك .

وسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما ، فالمراد أن لايقدم أحد من الرجال أو النساء على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الهيئة أو ذا عاهة فى بدنه أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله .

وقد كان آلسلف يبالغون فى البعد عن السخرية ،وهو لا يكلفنا شيئاً ، فينبغى أن نكون مثلهم ، فالعبرة فى الإسلام بالقلوب لا بهيئات الناس ومظاهرهم قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وإذا رأيت إنسانا على معصية فانهه ولا تسخر منه .

ويقول الله – تعالى – : (وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) واللمز : العيب ، وقد يكون باللسان أو الإشارة أو العين أو غير ذلك ، وقال : (وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) ولم يقل : ولا يلمز بعضكم بعضاً ، ليشير بذلك إلى أن المؤمنين كنفس واحدة ، فمن عاب غيره منهم فكأنما عاب نفسه ، قال ﷺ : « المؤمنون كجسد واحد ، إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أو : لا تفعلوا ماتلمزون به ؛ فإن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه .

ثم يقول الله – تعالى – : (وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ) والنَّبَزُ – بالتحريك – : اللقب ، ويكثر إطلاقه على لقب السوء ، وبالتسكين (النَّبْز) المصدر ، تقول : نبزه ينبزه نبْزًا : إذا لقبه بما يسوءه ، أخرج الترمذى فى سبب نزولها عن أبى جبير بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها فعسى أن يكره ، فنزلت هذه الآية (وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ) قال : هذا حديث حسن .

وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل : يافاسق ، يا منافق .

ومن الآية وسبب النزول عرفنا أن تلقيب الرجل بما يكره منهى عنه .

وجاء فى الآية « بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » أى : بئس أن يسمى الرجل كافرًا أو فاسقاً بعد إسلامه وتوبته ، روى أن أبا ذرٍّ كان عند النبى ﷺ فنازعه رجل ، فقال له أبوذر : يا ابن اليهودية ، فقال ﷺ : « ما ترى ؟ ها هنا أحمر وأسود ؟ ما أنت بأفضل منه » .

وقيل فى معنى الآية : إن من لقَّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق .

المفردات :

(فَاسِقٌ) : مرتكب للمعصية خارج عن الطاعة ، من فَسَقَت الرُّطَبة : خرجت عن قشرها.

(بِنَبَإٍ) : بخبر .

(فَتَبَيَّنُوٓا) : فتثبتوا .

(أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ) : لئلا تعتدوا على قوم بغير علم.

(لَعَنِتُّمْ) : لأصابكم العنت وهو المشقة والإثم .

(أُولَٰٓئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) : أولئك هم المستقيمون على طريق الحق مع تصلب فيه ، من الرشادة : وهى الصخرة .

التفسير

٦ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) :

الخبر الكاذب تكون آثاره بعيدة عن الصواب مجانبة للحق ، ولذا ينبغى التدقيق فى التعرف على راوى الخبر ، هل هو ممن عرف بالصلاح والصدق فيقبل خبره ، أم هو ممن عرف بالفسق والكذب فيتحرى عن خبره ويتثبت منه .

ولهذا أنزل الله هذه الآية الكريمة لتوعية المسلمين بالتدقيق فى تلقى الأخبار ، لما يترتب على قبولها من الفساق من سئ الآثار .

سبب نزول الآية :

روى سعيد عن قتادة أن النبى ﷺ بعث الوليد بن عُقْبة مُصَدِّقًا إلى بنى المصطلق - أى : جابيًا للصدقة منهم وهى الزكاة - فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم لإحنة كانت بينه وبينهم - كما جاء فى بعض الروايات - فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره بأنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، فبعث نبى الله ﷺ خالد بن الوليد ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، وانطلق خالد حتى أتاهم

ليلًا ، فبعث عيونه – أى : جواسيسه – فلما جاءُوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ، فعاد إلى النبى ﷺ فأخبره فنزلت الآية ، فكان نبى الله يقول : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » .

وجاء فى رواية أخرى أن وفدهم قدم على النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله سمعنا رسولك فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ما عندنا من الصدقة ، فاستمر راجعًا ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا لنقاتله ، والله ما خرجنا لذلك ، فأنزل الله هذه الآية .

هل كان الوليد فاسقا ؟ :

تقول الآية : (إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ) وهى تشير إلى أن الوليد كان فاسقًا ، فكيف يبعثه النبى لجلب الصدقة من المسلمين ؟

والجواب : أنه ﷺ لم يكن يعلم بحاله ، فلما أرسله وحدث منه ما حدث ظهر فسقه ، فنزلت الآية للتحذير من قبول من يحتمل أنه فاسق حتى يتبينوا .

المعنى الاجمالى للآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : إن جاءكم من يحتمل فسقه بخبر خطير فتثبتوا من صدقه ، لكى لا تصيبوا قومًا وتعتدوا عليهم وأنتم جاهلون للحقيقة ، فتصبحوا نادمين على ما فعلتم من التسرع فى الانتقام منهم ، قبل التثبت من حال خبرهم ، وذلك حين تظهر الحقيقة مخالفة للخبر بعد التورط فى آثاره .

٧ – (وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) :

المعنى : واعلموا يا صحابة رسول الله أن فيكم رسول الله فاصدقوه ولا تكذبوه ، وعظموه ووقروه ، وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، فلو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، لنالتكم المشقة والإثم ،

فإنه لو قاتل الذين كذب عليهم الوليد بن عقبة ، لكان خطأً كبيرًا ، ولأصاب العنت ، والإثم الوليد بن عقبة الذى أراد قتالهم ولأصاب من كان على رأيه منكم .

ثم خاطبهم الله مشيرًا إلى أنهم - مع خطئهم فى المشورة فى كثير من الأمور - مقيمون على الحق فقال : (وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) أى : ولكن الله حبب إليكم الإيمان بالله ورسوله وحسَّنه فى قلوبكم حتى اخترتموه (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) فرفضتموها « أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم المستقيمون على طريق الحق مع تصلب فيه .

والرشد مأخوذ من الرشادة ، وهى الصخرة ، كما تقدم فى المفردات .

٨ - (فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

أى : فعل الله ذلك بكم فضلا وإنعاماً منه ، والله عليم بما يصلحكم ، حكيم فى تدبير أموركم .

(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(طَائِفَتَانِ) : جماعتان .

(فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا) : فإن تعدت وظلمت .

(حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ اللَّهِ) : حتى ترجع إلى أمره .

(وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الإقساط[١] : العدل أى : واعدلوا فى الإصلاح بين الطائفتين إن الله يحب العادلين .

التفسير

٩ - (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا) الآية :

مقدمة :

بعث الله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولا يتحقق ذلك إلا بالوحدة وعدم التفرق بين المسلمين ، امتثالا لقوله - تعالى - : « واعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا۟ .... [٢] » فإذا وسوس الشيطان بين فريقين منهم حتى اقتتلوا ، وجبت المسارعة إلى الإصلاح بينهما ، كما كان النبي ﷺ يصنع مع أصحابه ، وعلى الفريقين أن ينقادوا إلى الصلح حفاظاً على الوحدة بين المسلمين ، ومن أجل ذلك نزلت هذه الآية والتى تليها .

سبب النزول :

روى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال : (قلت : يارسول الله ، لو أتيت عبد الله بن أُبَيٍّ - يعنى ابن سلول رأس المنافقين - فانطلق إليه النبي ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبي ﷺ قال : إليك عنى ، قد أذانى نَتَنُ حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لَحِمَارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية)[٣] وعلى أساسها أصلح النبي بينهم .

---

(١) إفعال من القسط - بكسر القاف - وهو العدل ، أما القسط - بفتح القاف - فهو الظلم ، ومنه قوله - تعالى - : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

(٢) من الآية ١٠٣ من آل عمران .

(٣) رواه الإمام أحمد بسنده عن معتمر ، ورواه البخارى فى الصلح عن مسدد ، ورواه مسلم فى المغازى بسنده عن محمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر بن سليمان عن أبيه .

وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج ، قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت .

وتوفيقاً بين الروايتين نقول : إن عبد الله بن أُبى بن سلول والذين تعصبوا له أوسيون والذين جابهوهم خزرجيون وعلى رأسهم عبد الله بن رواحة كما جاء فى إحدى الروايات .

كيف يكون الإصــلاح بينهما ؟

يكون الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين بالعدل وعدم التحيز إلى فئة على حساب الأُخرى ، فإن دين الإسلام دين مساواه ، وبذلك ترضى نفوسهما ويزول ما بينهما ، ومن وسائل الصلح التنازل عن حق الإمارة ، فقد بويع الحسن بن على - رضى الله عنهما - بعد قتل أبيه ، ثم تنازل عن حقه فى الإمارة والخلافة ، حقْناً لدماء المسلمين وجمعا لكلمتهم وقد أخبر النبى ﷺ بذلك فى طفولة الحسن .

روى الإمام البخارى بسنده عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علىٍّ ، فجعل ينظر إليه مَرَّةً وإلى الناس أُخرى ويقول : « إن ابنى هذا سيِّدٌ ، ولعل الله - تعالى - أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فكان كما قال ﷺ فقد أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق ، بعد الحروب المدمرة التى كانت بين أبيه وبين معاوية .

(فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أى : فإن تطاولت إحداهما على الأُخرى ولم تستجب للصلح فهى باغية عليها ، فيجب على المسلمين قتالها حتى ترجع إلى حكم الله فى كتابه وسنة رسوله ، فإن رجعت إليه فكُفُّوا عن قتالها ، وأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين .

بعض ما يستنبط من احكام الآية :

١ ـ استدل البخارى وغيره بالآية على أن المؤمن لايخرج عن إيمانه بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقول الخوارج وفريق من المعتزلة ، والآية صريحة فى ذلك ، فإنها سمتهم (المؤمنين) مع قتالهم ، وكما صرح به الحديث الصحيح السابق « ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

٢ ـ دلت الآية على وجوب قتال الفئة الباغية على الإمام وعلى سواه من المسلمين ، كما أنها حجة على من منع قتال المؤمنين مطلقاً ، محتجاً بقوله ﷺ : « قتال المؤمن كفر » فلو كان قتال المؤمن الباغى كفرا ، لكان أمر الله بقتاله أمرا بما يكفر ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ كما أن هذا القول مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » ولو كان قتال المؤمن محرماً على الإطلاق ، لما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة مانعى الزكاة من المؤمنين .

وقد أمر الصديق أن لايتبع فارٌّ ، ولا يجهز على جريح منهم ، ولا تَحِلُّ أموالهم ، بخلاف الواجب فى الكفار .

ويقول الطبرى : لو كان الواجب فى كل خلاف بين فريقين الهرب منه ولزوم المنازل ، لما أقيم حَدٌّ ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ماحرم عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » : إه . فلذلك كله يحمل حديث « قتال المؤمن كُفْرٌ » على قتال غير البغاة منهم استحلالًا له .

قتـال على ومعاوية :

كان القتال لشبهة قامت بينهما ، فالإمام علىٌّ طلب البيعة من أهل الشام وعلى رأسهم معاوية ، ومعاوية طلب الأخذ بثأر عثمان ممن يوجد منهم فى معسكر على ، فكان علىٌّ يقول : ادخلوا فى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه ، وكان معاوية ومن معه يقولون : لاتستحق البيعة وقتلة عثمان معك نراهم صباحاً ومساءً .

وكان عليٌّ أحسن رأيا من معاوية فى هذا ، لأنه لوقتل الذين قتلوا عثمان قبل تمام البيعة ، لتعصبت لهم قبائلهم وصارت حربا أخرى ، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من أولياء دم عثمان فى مجلس الحكم ؛ فيجرى القضاء بالحق والمسلمون يد واحدة .

٣ - يستنبط من قوله - تعالى - : « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أن لا يطالبوا بما جرى بينهما من دم ، ولا ما أنفق من مال ، فى طلب ذلك منهم تنفير لهم عن الصلح .

٤ - قال القرطبى : لا يجوز أن يُنْسبَ إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوع به ، إذكانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله - عز وجل - ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا الله بالكف عما شجر بينهم ، وأن لا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ، ونهى النبى ﷺ عن سبهم ، وذكر أن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم ، قال - تعالى - فى سورة التوبة : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... »[١] وقال فى سورة الفتح : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... »[٢] هذا مع ما ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى ﷺ « أن طلحة شهيد يمشى على الأرض » فلو كان ما خرج له معصية لم يكن بالقتل فيه شهيدًا .

ثم قال القرطبى : وسئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم فقال : تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أخضِّب بها لسانى . يريد التحرز من الحكم على بعضهم بما لايكون مصيباً فيه .

ثم قال القرطبى : وقال الحسن البصرى : قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنَا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف

(١) من الآية ١٠٠
(٢) من الآية ١٨

عما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأياً مِنَّا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله – عز وجل – إذ كانوا غير متهمين فى الدين – انتهى ما قاله القرطبي وما نقله عن غيره بتصرف يسير .

١٠ – (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

إنما المؤمنون إخوة فى الدين ، والأخوة فيه أقوى من الأخوة فى النسب ، فاتقوا الله فى الإصلاح بينهم لعلكم ترحمون فى الدنيا والآخرة .

أخرج الصحيحان بسنديهما عن النبي ﷺ أنه قال : « المسلم أخو المسلم ، لايظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره – بِحَسْبِ امرئ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » .

راى على فيمن قاتلوه :

سئل الإمام علي – رضى الله عنه – عمَّن قاتلوه : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فَرُّوا ، فقيل له : أمنافقون هم ؟ قال : لا ؛ لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا ، فقيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(قَوْمٌ) : هم الرجال دون النساء .

(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) : ولا يعب بعضكم بعضاً .

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) أى : بئس أن يسمى المسلم كافرًا أو زانياً بعد إيمانه .

التفسير

١١ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..) الآية :

من أهداف الإسلام العظمى أن يجعل المؤمنين مجتمعا فاضلا يقوم على مكارم الأخلاق ، وقد اشتملت هذه الآية على آداب رشيدة من دستور الإسلام الخلقى ، وبيان ذلك فيما يلى :

نهى الله المؤمنين فى صدر هذه الآية عن سخرية بعضهم ببعض ، والاستهزاء بهم ، والقوم يطلق على الرجال بخاصة ، وقد يدخل النساء فى القوم مجازًا ، ولكن الله شاء أن يعنى بهذه الخصلة ، فنهى النساء عنها نهياً مستقلا عن نهى الذكور لكثرة وقوعها بينهن .

سبب نزول الآية :

اختلف فيه ، فقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذين تقدم ذكرهم فى تفسير أول السورة ، استهزءوا بفقراء الصحابة مثل عمّار وخباب وابن فهيرة ، وبلال وصهيب وسلمان الفارسى ، وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم حين رأوا رثاثة حالهم ، فنزلت فى الذين آمنوا من هؤلاء المستهزئين .

وقيل : نزلت فى عكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلماً ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت ، وقيل غير ذلك .

وسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما ، فالمراد أن لايقدم أحد من الرجال أو النساء على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الهيئة أو ذا عاهة فى بدنه أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله .

وقد كان السلف يبالغون فى البعد عن السخرية ، وهو لا يكلفنا شيئاً ، فينبغى أن نكون مثلهم ، فالعبرة فى الإسلام بالقلوب لا بهيئات الناس ومظاهرهم قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وإذا رأيت إنسانا على معصية فانهه ولا تسخر منه .

ويقول الله – تعالى – : (وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) واللمز : العيب ، وقد يكون باللسان أو الإشارة أو العين أو غير ذلك ، وقال : (وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) ولم يقل : ولا يلمز بعضكم بعضاً ، ليشير بذلك إلى أن المؤمنين كنفس واحدة ، فمن عاب غيره منهم فكأنما عاب نفسه ، قال ﷺ : « المؤمنون كجسد واحد ، إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أو : لا تفعلوا ماتلمزون به ؛ فإن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه .

ثم يقول الله – تعالى – : (وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ) والنَّبَزُ – بالتحريك – : اللقب ، ويكثر إطلاقه على لقب السوء ، وبالتسكين (النَّبْز) المصدر ، تقول : نبزه ينبزه نبْزًا : إذا لقبه بما يسوءه ، أخرج الترمذى فى سبب نزولها عن أبى جبير بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها فعسى أن يكره ، فنزلت هذه الآية (وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ) قال : هذا حديث حسن .

وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل : يافاسق ، يا منافق .

ومن الآية وسبب النزول عرفنا أن تلقيب الرجل بما يكره منهى عنه .

وجاء فى الآية « بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » أى : بئس أن يسمى الرجل كافرًا أو فاسقاً بعد إسلامه وتوبته ، روى أن أبا ذرٍّ كان عند النبى ﷺ فنازعه رجل ، فقال له أبوذر : يا ابن اليهودية ، فقال ﷺ : « ما ترى ؟ ها هنا أحمر وأسود ؟ ما أنت بأفضل منه » .

وقيل فى معنى الآية : إن من لقَّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق .

واستثنى من ذلك ما غلب عليه الاستعمال ولم يكن لصاحبه فيه كسب ولايتأذى منه ، لأنه لمجرد التمييز لا الإيذاء ، كالأعرج والأحدب والطويل والقصير ، ومثل ذلك قد يأتى فى أسانيد الحديث ورجاله .

ويجوز تلقيب الإنسان بما يحب ، ولهذا لقب الرسول ﷺ عُمَرَ بالفاروق ،وأبا بكر بالصديق ، وعثمان بذى النورين ، قال ﷺ : « من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه » ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن ، وقد لقب أبو بكر بالعتيق كما لقب بالصديق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بن الوليد بسيف الله .

المعنى الاجمالى للآية :

يا أيها الذين شرفهم الله بالإيمان : لا يسخر أحد من أحد ، فلا يستهزئ الرجال بالرجال ، ولا النساءُ بالنساء ،عسى أن يكون المسخور به خيرًا عند الله من الساخر ،لنظافة قلبه وصفاء نفسه ، ولا يَعِبْ بعضكم بعضا بالقول أو الإشارة أو نحوهما ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ، فإذا لمزتَ أخاك وعبتَهُ فكأنما لمزت نفسك وعبتها ، بئس الوصف الفسوق بعد الإيمان ، فمن حق الإيمان أن يعصم الناس عن أن يعيب بعضهم بعضا ، فإذا فعل المؤمن ذلك فقد فسق بعد الإيمان ، وذلك أمر لا يليق بالمؤمنين ، ومن لم يتب من الاستهزاء بغيره وتنقيصه بالعيب فيه ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾)

المفــــردات :

(الظَّنِّ) المراد به فى الآية : الاتهام .

(وَلَا تَجَسَّسُوا۟) التجسس : هو البحث فى خفية عما يكتم عنك .

(وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً) : لا يتحدث عنه فى غيبته بما يكرهه .

(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ) الشعوب : رءوس القبائل كربيعة ومضر ، والقبائل فروعها ، وقال ابن عباس : الشعوب : الجمهور ، والقبائل : الأفخاذ .

التفســــير

١٢ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا۟ اجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ....) الآية :

بعد أن بين الله - تعالى - فى الآية السابقة تحريم السّخرية والتنابز بالألقاب ، جاء بهذه الآية استكمالا لحقوق المسلم على أخيه .

وقد اشتملت هذه الآية على تحريم سوء الظن بالناس ، والتجسس عليهم ، وحديث السوء عنهم فى غيبتهم ، وقد جاء فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ .

قال : « إياكُم والظَّن ، فَإنَّ الظَّن أكذبُ الحديثِ ، ولا تَجسَّسُوا ، ولا تَباغَضُوا ، ولا تَنَابَزُوا وَكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْواناً » .

والظَّن فى الآية والحديث هو الاتهام ، فلا يحل لمسلم أن يتهم أخاه ، صيانة لأعراض الناس وتأميناً لهم من سوء السمعة بدون مقتض ، ومنعاً للعداوة وآثارها .

ويفهم من النهى عن كثير من الظن أنه يجوز بعض الظن ، وذلك إذا وجدت أمارة تقتضيه ، قال القرطبى : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل مالم نعرف له أمارة صحيحة وسببا ظاهرا كان حراماً واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنُّ الفساد به والخيانة محرم ، بخلاف من اشتهر عند الناس بتعاطى الرِّيب ، والمجاهرة بالخبائث .

ونزيد على ذلك فنقول : إنه لاينبغى أن تتهم إنسانا بأنه هو الذى أحدث لك بعض الأضرار فى أرضك أو بيتك أو سمعتك ، ما لم تقم أمارة قوية على ذلك ، حتى لا تتورط معه فيما يضرك ويضره ، فربما كان ما أصابك ممّن يظهر لك مودة وأنت به واثق .

ويجوز الحذر من شخص أو أشخاص ، خشية أن يأتيك ضرر من جهتهم ، وليس لك أن تتهمهم بغير دليل ، فإن اتهمتهم لوجود أمارة تدل عليه فلك الحق فى اتهامهم ، ولكن ليس لك الحق فى الانتقام منهم ، فربما كانوا برآء ، وعليك أن تلجأ إلى القضاء ، فهو الذى يفصل الحق من الباطل .

ويجوز التجسس لتوقى هذه الأضرار ، دون أى مساس بحرمات من تتجسس عليه ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك .

قال عمر بن طلحة فى كتابه (العقد الفريد للملك السعيد) : وأما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فإنه بذل جهده فى تسديد الأمور ، وسَدِّ الثغور وسياسة الجمهور ، وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاده ، فلم يكن له فى قطر من الأقطار والٍ ولا عاملٌ ولا أمير إلا وله عليه عَيْنٌ (أى : جاسوس)

لايفارقه ، فكانت أخبار الجهات كلها عنده كل صباح ومساء ، حتى أن العامل كان يتوهم فى أقرب الخلق إليه أنه عين عليه : انتهى بتصرف .

والتجسس : هو البحث فى خفية عما يكتم عنك ، ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور الخفية .

والمقصود من النهى عنه فى الآية أن يأخذ المؤمنون ما ظهر من الناس ، ولا يتبعوا عورات المسلمين ، فلا يبحث المسلم عن عيب أخيه ليطلع عليه بعد أن ستره الله ، عن أبى بَرْزَةَ الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « يامَعْشرَ من آمَن بِلسانِهِ ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ ، لاتغتابوا المسلمين ، ولاتتبعوا عوراتهم ؛ فإن من تتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع اللهُ عورَتَهُ يَفضَحْهُ فى بيتِه » .

وجاء عن زيد بن وهب قال : أُتِيَ ابن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرًا ، فقال عبد الله : إناقد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهرْ لنا شيءٌ نأخذْ به .

(وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) :

الغِيبة : أن تذكر أخاك فى غيبته بما فيه من المكاره ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهوالبهتان . فنى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِما يَكْرَهُ » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كَانَ فيهِ ما تَقُولُ فقدِ اغْتَبْتَهُ ، وإن لم يكنْ فقَدْ بَهتَّهُ » .

والمقصود من هذا صيانة أعراض الناس ، وتركهم إلى الله فيما بينهم وبينه .

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) :

هذه الجملة تشير إلى أن غيبة المؤمن تشبه أكل لحمه ميتاً ، واستعمال أكل اللحم مكان الغيبة مألوف فى كلام العرب ، قال شاعر منهم :

فإن أكلوا لَحمِى وَفَرْتُ لُحومَهم   وإن هدموا مَجْدِى بنيْتُ لهم مجدًا

وقد مثل الله الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحيَّ لايعلم بغيبة من اغتابه ، وقال ابن عباس : إنما ضرب هذا المثل للغيبة ؛ لأن أكل لحم الميتة حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين ، وقبيحة فى النفوس .

والغيبة تأكل الحسنات ، قال ﷺ : « ماصام من ظل يأكل لحوم الناس » والغيبة تكون فى الدين والأخلاق والخِلْقة والحسب والنسب ، ولا خلاف بين العلماء فى أنها من الكبائر ، فعلى المغتاب أن يتوب إلى الله .

كيف تكون التوبة من الغيبة ؟

اختلف العلماء فى كيفية التوبة منها ، فقال بعضهم : هى مظلمة يكفى فيها الاستغفار لمن اغتابه إلى جانب الاستغفار لنفسه ، وقال آخرون : هى مظلمة لابد فى التوبة منها من طلب العفو ممن اغتابه ، لقوله ﷺ : « مَنْ كانت له مَظْلمةٌ لأخيه من عِرْضه أو شىء ، فليتحلله منه قبل أن لا يكون له دينارٌ ولا درهم ، إن كان له عملٌ صالح أُخذ منه بقدر مَظْلمته ، وإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبِه فحُمِلَ عليه » أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة .

من لا غيبة لهم :

لا تحرم الغيبة للفاسق المجاهر بفسقه ، ولا فى عرض الشكوى على القاضى ، كقولك : فلان ظلمنى أو خاننى أو نحو ذلك ، ولا فى الاستفتاء كقول هند عن زوجها أبى سفيان : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى أنا وولدى ، أفآخذ من غير علمه ؟ فقال : « فخذى بالمعروف » .

ولاتحرم فى النصيحة والتحذير ، ولا فى التعريف : كفلان الأعرج أو الأعمى .

(فَكَرِهْتُمُوهُ) :

أى : فكرهتم أكل لحم أخيكم ميتا ، فكذلك فاكرهوا غيبته ، وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ، أى : فاكرهوا غيبته .

(وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) :

ختم الله الآية بهذه الجملة ، لحمل الناس على ترك الغيبة وعلى التوبة منها .

والمعنى : واتقوا الله بترك الغيبة والتوبة إليه منها ومن سائر الذنوب إن الله تواب رحيم يقبل التوبة من التائبين ، ويعفو عن سيئات المسيئين ، إذا حسنت توبتهم لرب العالمين .

١٣ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) :

بَعْدَ أن ذكر الله - تعالى - تلك الآداب السامية التى حفلت بها هذه السورة ، ختمها بلون من الأدب العالى ، وهو تعليم عباده أن لا كرم ولا شرف عند الله إلا بالتقوى كيفما كانت الأحساب والأنساب ، حتى لايتعالى بعضهم على بعض بغير حق ، فكل الناس من آدم وحواء ، فلا وجه للتعالى بالأحساب والأنساب ؛ ليظل الناس إخوة متواضعين متحابين .

وجاء فى معنى الآية فى كتاب (آداب النفوس) للطبرانى بسنده عن أبى نضرة قال : حدثنى - أو حدثنا - من شهد خطب رسول الله ﷺ بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « ياأيها الناس : ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإن أباكُم واحدٌ ، ألا لافضل لعربىٍّ على عجمى ولاعجمى على عربى ، ولا لأسودَ على أحمرَ ، ولا لأحمرَ على أسودَ إلا بالتقوى ، أَلَا هَلْ بلَّغْت ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : «ليبلغْ الشاهدُ الغائب » .

سبب نزول هـــذه الآية :

أخرج أبو داود بسنده عن الزهرى - مُرْسَلًا - قال : « أمر رسولُ الله ﷺ بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا لرسولِ الله ﷺ : أنزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله - عز وجل - : (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ .) وقيل فى سبب نزولها غير ذلك ، ولا مانع من نزولها من أجل عدد من الحوادث المتشابهة .

وقد عرف من الآية والحديث وسبب النزول أن الناس متماثلون فى الآدمية ، فلا شرف فيهم إلا بتقوى الله - عز وجل - .

واعلم أن الناس أربعة أصناف : صنف خلق من تراب هو آدم - عليه السلام - وصنف خلق من أب دون أم وهو حواء ؛ فقد خلقت من أحد أضلاع آدم ، وصنف خلق من أم دون أب وهو عيسى - عليه السلام - وصنف خلق من أبوين ذكر وأنثى وهو جميع البشر ماعدا هؤلاء ، وقد خلقهم الله على هذا النحو ليعلم الناس قدرة الله على خلق مايشاء كما يشاء .

وعقب الله خلقه للناس من ذكر وأنثى بقوله :(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ) والشعوب : جمع شَعْب - بفتح وسكون[1]

والشعب : ماتشعبت منه القبائل ، فالعرب شعب ، وقبائله مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج ، وقد يطلق الشَّعب على القبيلة العظيمة ، قال ابن عباس : الشعوب : الجمهور مثل مضر ، والقبائل : الأفخاذ ، وقد جعلهم الله كذلك ليتمايزوا ويتعارفوا ، كأن يقول الواحد منهم : أنا من شعب مصر : من قبيلة كذا ، فيعرف نسبه .

ولقد جعل الله الشعوب والقبائل تتخذ لها أماكن مستقلة ، ليزداد التعارف بين الناس بذكر المكان ، وقد كان الناس - عربا أو عجما - عند نزول الآية قبائل متمايزة ، ضمن شعوب تعمهم ، ولكنهم الآن فى معظم الأمم ، قد اختلط بعضهم ببعض ، وأصبح التعارف بينهم بالانتماء إلى الأمم ، وببيان البلدان التى يعيشون فيها ، والمساكن التى يأوون إليها .

وعقب الله هذه الجملة بقوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) لبيان أن التقوى هى الأمر المُراعَى عند الله ، وليس الحسب والنسب والمال والوظيفة .

(١) أما الشِّعب - بكسر الشين - فهو الطريق إلى الجبل ، وجمعه : شعاب .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله – تعالى – يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبي لأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ ».

وفى حديث مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا : «إنَّ أولياءَ أبي ليسوا لى بأولياء ، إنَّ وليِّيَ اللهُ وصالحو المؤمنين».

وقد ختم الله الآية بقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أى : أنه – تعالى – عليم خبير بأحوال الناس نحو هذه الآداب ، فيثيب من تأدب بها ، ويعاقب من أعرض عنها .

صور مشرقة من محو الفوارق الطبقية فى الزواج :

لقد كان لهذا الأدب تأثيره فى محو الفوارق بين طبقات الناس ، فقد ذكر الطبرى بسنده عن أبي الجَعْد قال : تزوج رجل من الأنصار امرأة فطعن عليها فى حسبها ، فقال الرجُلُ : إنى لم أتزوجها لحسبها ، إنما تزوجتها لدينها وخلقها ، فقال النبي ﷺ : « مايضرك أن لا تكون من آل حاجب بن زرارة ؟ » ثم قال النبي ﷺ : «إن الله –تعالى– جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة ، وأتمَّ به الناقصة ، فأذهب به اللوم ، فلا لوم على مسلم ، إنما اللومُ لومُ الجاهلية » .

وفى الصحيح عن عائشة – رضى الله عنها – أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة – وكان ممن شهد بَدْرا مع النبي ﷺ – تبَنَّى سالما وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولى امرأة من الأنصار[١] ، وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد ابن الأسود ، وتزوج بلال بن رباح أخت عبد الرحمن بن عوف ، فدلَّ ذلك على جواز نكاح المولى العتيق من الحرة ، ومَنْ نَسَبُه خامل ممن نسبه عالٍ ، وأن المعوّل عليه فى الإسلام هو التقوى ، وهى التى اعتبرها المالكية أساس الكفاءة دون الحسب والنسب والغنى[٢] وما إلى ذلك من الفوارق الطبقية .

---

(١) أى : عتيقها .

(٢) أما الحنفية والشافعية فقد اشترطوا الكفاءة فى ذلك .

* (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟
أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟
وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ
أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(الْأَعْرَابُ) : هم سكان البادية بخاصة ، والأعراب اسم جنس وليس جمعا ، والنسبة إليه أعرابي ، أما العرب فهم أهل الأمْصَار ، وهو اسم جنس أيضا ، والنسبة إليه عربي .

(آمَنَّا) : صدقنا بألسنتنا وقلوبنا .

(أَسْلَمْنَا) : صدقنا بألسنتنا دون قلوبنا .

(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) : وحتى الآن لم يدخل التصديق فى قلوبكم .

(لَا يَلِتْكُمْ) : لاينقصكم .

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ) : قل لهم أيها الرسول : أتخبرون الله بدينكم بقولكم : آمنا ؟ .

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) : يعدون إسلامهم مِنَّة عليك ، والمنة : النعمة التى لايطلب لها ثواب ممن أُنعِم بها عليه .

التفسير

١٤ – (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ختم الله الآية السابقة بقوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) وجاءت هذه الآية لتفيد أن الإيمان باللفظ ليس إيمانا عند الله ، بل هو إسلام وخضوع ظاهرى يقصد به السلامة من القتل لشركهم ، وجر المغانم إن جاهدوا بعد إسلامهم ، ومن كان كذلك فلا تقوى عنده ، ولا كرامة له عند الله تعالى .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى بنى أسد بن خزيمة – قبيلة تجاور المدينة – أظهروا الإسلام وقلوبهم دَغِلَة[1] ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .

وقال القرطبي : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة ، قدموا على رسول الله ﷺ فى سنة جَدْبة ، وأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا مؤمنين فى السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذِرَات[2] وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأنفال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا الصدقة ، وجعلوا يَمُنُّونَ عليه ، فأنزل

---

(١) أى : فاسدة غير مخلصة .

(٢) جمع عذرة : وهى الغائط .

الله – تعالى – فيهم هذه الآية . وقيل غير ذلك فى سبب نزولها ، وتعتبر هذه الرواية تفصيلا لما قبلها .

على أى سبب نقله الرواة فالآية خاصة ببعض الأعراب ، لأن منهم من آمن بالله واليوم الآخر ، وفيهم قال الله – تعالى – : «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١)» .

ومعنى الآية : قالت الأعراب الذين حول المدينة لرسول الله ﷺ : آمنا ، يقصدون إيهامه أنهم صدقوا به وبرسالته مخلصين ، وقد كذبوا ؛ فإنهم منافقون ، ولهذا كذبهم الله – تعالى – بقوله لرسوله ليبلغهم : (قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ) أى : قل لهم : لم تصدقوا بقلوبكم ، ولكن قولوا : أسلمنا بألسنتنا ؛ رغبة فى جلب المنافع ودفع المضار ، وحتى الآن لم يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله فتُصَدِّقوا بقلوبكم كما صدقتم بألسنتكم لاينقصكم شيئا من أجور أعمالكم التى تُؤَدونها بعد صدق الإيمان ، إن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة ، فبادروا بالإخلاص ليغفر لكم نفاقكم الذى أنتم فيه ، ويرحمكم بقبول توبتكم .

١٥ – (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

إنما المؤمنون–حقيقة–هم الذين صدقوا بالله ورسوله بقلوبهم ، ثم لم يطرأ على إيمانهم ريبة وشك ، وبذلوا الجهد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا طلبوا للجهاد ، أولئك الموصوفون بتلك الصفات هم الصادقون فى إيمانهم لا أنتم أيها المنافقون الذين قدمتم لنيل المغانم ، واتقاء المغارم .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٩٩

ولما نزلت هذه الآية جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون ، فأنزل الله فيهم الآية التالية :

١٦ - (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الأعراب المنافقين : أتعرِّفون الله بدينكم وتخبرونه به زاعمين أنكم مخلصون فيه ، والله يعلم مافى السموات وما فى الأرض ، من الكليات والجزئيات ، والله بكل شىء عليم ، فلا يحتاج إلى من يعلمه ويعرفه ، فلا يخفى عليه سِرُّكم ونجواكم .

١٧ - (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

يعد هؤلاء الأعراب المنافقون أن إظهار إسلامهم مِنَّة ونعمة عليك أيها الرسول ، حيث قالوا : لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان الذين كفروا بك ، قل لهم - أيها الرسول - : لا تمنُّوا عَلَىَّ إسلامكم الذى زعمتموه إيمانا ، بل الله - تعالى - هو الذى يمن عليكم أنْ وفقكم للإيمان إن كنتم مؤمنين كما زعمتم ، وما أولئك بالمؤمنين ، ولذا عقب الله هذه الآية بقوله تأكيدا لتكذيبهم :

١٨ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

إن الله - تعالى - يعلم ماغاب عن العيون فى السموات والأرض ، والله بصير بما تعملونه أيها الأعراب فى سركم وعلانيتكم ، فكيف يخفى عليه حالكم ؟.

« سورة ق »

مكية وآياتها خمس وأربعون

مجمل معانيها :

تضمنت هذه السورة عجب الكفار من مجيء منذر منهم ، وأنكروا البعث قائلين : (ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) مع أن الله - تعالى - خلقهم أول مرة ؛ وعابت عليهم أنهم لم ينظروا إلى آيات قدرته فى خلق السموات والأرض وما فيهما ومابينهما (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) وبينت أنهم يبصرون إحياء الله للأموات من آن لآخر فى الزروع والأشجار (كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) أى : كذلك البعث ، ثم حكت تكذيب قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود وعاد وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع - حكت تكذيبهم - لأنبيائهم ، فنزل بهم وعيد الله باستئصالهم ، وبينت أنه - تعالى - خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأن عليه رقباء من الملائكة ثابتين ، وحكت أهوال الموت والقيامة ، وغفلة الإنسان عن ذلك كله ، وأن التابعين والمتبوعين فى الكفر يختصمون لديه - تعالى - فيلقى التابعون مسئولية كفرهم على المتبوعين ، والمتبوعون يتبرأون منهم ، فيقول لهم الله - تعالى - : (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) وحكت فوز المتقين بنعيم الجنة خالدين فيها أبدا (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) ثم حثت النبي ﷺ على الصبر والتسبيح (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) ثم أبانت أنه - تعالى - يحيى ويميت وإليه المصير ، ثم نفت عنه ﷺ مسئولية كفرهم ، وأوجبت عليه مداومة التذكير (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ
مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ
فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) : ذى المجد والشرف ، فهو من قبيل النسب بغير الياء المشددة كلابن وتامر ، أى : صاحب لبن وصاحب تمر .

(هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) : هذا شئ يقتضى التعجب والإنكار - كما زعموا - .

(ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) : ذلك البعث رجع بعيد عن الوقوع أو عن الإمكان .

(وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) : وعندنا كتاب حافظ لكليات الأمور وجزئياتها ، والمراد به : علم الله ، أو اللوح المحفوظ .

(فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) : فهم فى أمر مضطرب ، من : مَرَجَ الخاتمُ فى أصبعه : إذا تحرك واضطرب من الهزال .

مقـــدمة :

سورة (ق) سورة عظيمة فى مبانيها ومعانيها، لها تأثير واغل فى أعماق النفوس، ولهذا كان النبى ﷺ يخطب بها يوم الجمعة، جاء فى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: (لقد كان تَنُّورُنا[1] وتَنُّور رسول الله ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذتُ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤُها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس).

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل أبا واقد الليثى : « ماكان يقرأُ به رسول الله ﷺ فى الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » و « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ » .

وعن جابر بن سمرة (أن النبى ﷺ كان يقرأُ فى الفجر بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وكانت صلاته بعدُ تخفيفا) وكل ذلك قد حدث وهو مروى بصحاح الأحاديث.

التفسير

١-٣ (قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) :

(قٓ) سبق الكلام على مثله من الحروف فى سورتى البقرة وآل عمران، فارجع إليه فيهما، والقرآن: هو الكتاب الذى أنزله الله بلفظه على نبيه محمد ﷺ ليكون معجزة مؤيدة له، باقية إلى قيام الساعة، أما معجزات الأنبياء قبله فقد فَنِيَت ولم يبق منها إلَّا الحديث عنها.

وقد وُصِف القرآن بلفظ (الْمَجِيدِ) بمعنى ذى المجد والشرف، وشرفه بالنسبة إلى سائر الكتب واضح، أما غير الإلٰهية فظاهر، وأما الإلٰهية فلإعجازه وكونهُ غير منسوخ بغيره، واشتماله مع إيجازه على أسرار يضيق عنها كل واحد منها.

(١) التنور: الذى يخبز فيه وهو الفرن.

وقال الراغب : المجد : السعة والكرم ، ثم قال : ووصف القرآن به لكثرة مايتضمن من المكارم الدنيوية والأُخروية . إهـ .

وقد أقسم الله بالقرآن المجيد ، وجواب القسم مقدر يدل عليه المقام ، وتقديره : إنا أنزلناه لتنذر به الناس ، أو إنك لمنذر بالبعث وما وراءه .

وقد عقّب الله هذا القسم بقوله : (بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) ، ولفظ (بَلْ) للإضراب الانتقالى عمّا ينبئ عنه جواب القسم المقدر ، فكأنه قيل : إنا أنزلناه لتنذر الناس بالبعث وما وراءه فلم يؤمنوا ، بل جعلوا كلا من المنذِر والمنذَر به عرضة للتنكير والتعجب ، مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والتلقى بالقبول .

ثم أكدوا تعجبهم وبينوا أهم ماينكرونه ويتعجبون منه فقالوا : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) يعنون أنهم إذا ماتوا وتحولت لحومهم وعظامهم إلى تراب ، لا يعقل أن تعود إليهم الحياة مرة أُخرى ، وجواب الاستفهام مقدر ، أى : نرجع .

ومعنى الآية : أئذا تحولت لحومنا وعظامنا إلى تراب بعد الموت نرجع إلى الحياة مرةً أخرى ؟ ذلك الرجوع إليها حينئذ رجوع بعيد عن التصديق وعن القبول .

وهذا الاستبعاد ناشئ عن قصر نظرهم وسوء فهمهم ، فإن مَن خلقهم من تراب يُعِيد خلقهم منه ، وهو أهون من البدء .

وقد ردّ الله عليهم ، وعاب سرعة تكذيبهم للحق من غير روية فقال :

٤ ، ٥ ــ (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ . بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) :

أى : أن بعثهم حينئذ لاصعوبة فيه على الله ــ تعالى ــ فقد علم ماتأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، وعنده كتاب حافظ لتفاصيل الكون كله ، ومنها ماتنقص الأرض من الموتى بعد موتهم .

والمراد بالكتاب الحفيظ : علم الله - تعالى - على سبيل التمثيل ، أو اللوح المحفوظ ، ثم أضرب عن إنكارهم البعث انتقالًا إلى ما هو أفظع منه ، وذلك فى قوله - جل وعلا - : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ :

أى : بل كذبوا بالقرآن الذى هو كلام الله ومعجزته الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وكان تكذيبهم به حين جاءهم من غير روية ، وبلا تفكر وتدبر ، وبتكذيبهم له تكذيبا لما فيه من توحيد الله - تعالى - وسائر كمالاته ، وكذبوا بنبوة محمد ﷺ فهم فى أمر مضطرب ، فتارة يقولون : إنما يعلمه بشر وما هو من كلام الله ، وأخرى يقولون : إنه شعر ، وثالثة يقولون : هو أساطير الأولين .

ويقولون عن محمد ﷺ : إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون ، وكل ذلك ناشئ عن نظرات سطحية لا عمق فيها ، وعن تقليدهم للآباء ، وزعمهم أنه لو كانت نبوة من البشر لكلف بها رجل من الرؤساء ، وذلك قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[1] يعنون بهما : مكة والطائف ، فهم فى أمر مريج مضطرب لا يثبتون على حال ، وقد ذابت كل أكاذيبهم مع الزمن ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، ومنهم أهل مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول : « وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[2] .

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٣١

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨١

(أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا
لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾) .

المفـــردات :

(كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) : كيف أنشأناها فى عظمتها وحسنها ، ورفعها بغير عمد ترونها .

(وَزَيَّنَّاهَا) : وجعلنا لها زينة بالكواكب على أبدع نظام ، وأكمل إحكام .

(وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) : وليس فيها شقوق وخلل .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : بسطناها فى رأى العين ، وإن كانت فى حقيقتها مكورة .

(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) : وأنبتنا فيها من كل صنف حسن يَبْهَج ويَسُرُّ مَنْ نظر إليه ، وفعله بَهِج بوزن طرب ، والبهجة : الحسن ، وفعله بوزن ظَرُف وطَرِب ، فهى مشتركة بين الوزنين .

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(وَحَبَّ الْحَصِيدِ) : وحب الزرع الذى شأنه أن يحصد ، أى : يقطع .

(بَاسِقَاتٍ) : طويلات .

(لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ) : لها طلع منضود بعضه فوق بعض .

(كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) : مثل ذلك خروجكم للبعث من قبوركم .

التفسير

٦ - (أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) :

جاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتعيب على المشركين شركهم واضطرابهم فى أمر الحق الذى جاء به محمد ﷺ عن ربه ، ومنه البعث والنشور - تعيب عليهم ذلك - مع وجود الآيات الكونية الدالة على توحيد الله وإمكان البعث وهم غافلون عنها .

ولقد أشارت هذه الآية إلى أن لله سماء ، ولهذه السماء زينة ، فأما الزينة فهى الكواكب التى يرونها متلألئة فى الفضاء ، دائرة فيه بقدرة الله - تعالى - وأما السماء الحقيقية فهى محجوبة عنا ؛ لأنها من شأن الله ، ولسنا بحاجة إلى معرفة حقيقتها ووظائفها ، فهى من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة الصافات : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ »[1] ، ويقول فى سورة فصلت : « وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ »[2] ، ويقول فى سورة الملك : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ »[3] ثم يقول فيها : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ... »[4] إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن لله سبعَ سموات ، وأن الكواكب زينة للسماء الأولى منها ، ولا شك أن الزينة غير المزيَّن ، فهى أمر زائد على الذات .

ومعلوم أن طبقات الكواكب وسُدُمها ليست سبعًا ، بل هى ملايين الملايين ، وأن الرسول ﷺ ليلة المعراج عُرج به إلى تلك السموات لا إلى الكواكب .

---

(١) الآية رقم : ٦ .
(٢) من الآية رقم : ١٢ .
(٣) من الآية رقم : ٣ .
(٤) من الآية رقم : ٥ .

ومعنى الآية : أَعَمِيَتْ قريش حين أشركوا وأنكروا البعث - أعموا - فلم ينظروا إلى الكواكب فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت ، كيف بنيناها وأحكمناها ، وجعلناها زينة للسماء الدنيا وما لها من شقوق ولا فتوق ، فهى تامة السلامة من كل عيب .

واعلم أيها القارئ الكريم أن القبة الزرقاء التى ترى خلالها الكواكبَ ما هى إلا الغلاف الجوى ، وفوقه ظلمة حالكة السواد ، كما اكتشف ذلك علماء الفلك ، فإذا أطلق عليه لفظ (سماء) فهو إطلاق لغوى ، فإن كل ما علاك سماء .

٧ ، ٨ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) :

الأرض مثل الكرة ، غير أنها منبعجة[1] من جهة القطبين ، وهى تدور فى الفضاء تحت الشمس ، وتنتقل فى مدارها من برج إلى برج ، ويترتب على ذلك وجود الليل والنهار ، والربيع والصيف والخريف والشتاء .

وظاهر الآية يدل على أن الأرض مفروشة ومبسوطة ، وهذا لا ينافى أنها كروية ، فهى مبسوطة فى رأى العين ، كروية فى الحقيقة ، ولهذا ترى الشمس تشرق فى بعض الأقاليم ، وغيرها مما يليها لا يزال الليل فيه ، فلا تُرَى الشمسُ فيه إلا بعد حين يطول أو يقصر حسب البعد والقرب ، وذلك ناشئ من كرويتها ، فَعاليها يحجب ضوء الشمس عن سافلها ، ولو لم تكن الأرض كروية لأشرقت الشمس على جميع أقاليمها فى وقت واحد .

والمعنى : والأرض بسطها الله فى رأى العين ومهدها ليتيسر السير عليها والانتفاع بها ، وخلق فيها جبالاً ثوابت تحفظها من أن تميد وتضطرب بمن عليها ، وأنبت فيها بقدرته من كل صنف حسن يسر الناظرين والآكلين ، وقد فعل الله ذلك تبصيراً وتذكيراً لكل عبد منيب راجع إلى الحق ، فالصنعة البديعة تدل أوضح الدلالة على الصانع المبدع المتفرد فى إبداعه .

---

(١) أى : ناقصة .

٩ - ١١ - (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ[١] بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ[٢] . رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) :

تخصيص النخل بالذكر مع اندراجه فى الجنات ، لبيان فضلها على سائر الأشجار ، وتوسيط الحب بين الجنات والنخل لتأكيد استقلال النخل وامتيازها عنها ، مع ما فيه من رعاية الفواصل .

ومعنى الآية : ونزلنا من السحاب ماء مباركا كثير الخيرات - أنزلناه - فى جميع الأقاليم فى أوقات مناسبة لمصالح العباد ، فأنبتنا بهذا الماء المبارك بساتين كثيرة مشتملة على أطيب أنواع الثمار والفاكهة ، وأنبتنا به حب الزرع الذى يحصد ويقطع ليستخرج منه حبه كالبر والشعير والذرة وغيرها ، وأنبتنا به النخل طويلات لها طلع منضود بعضه فوق بعض . - أنبتنا كل ذلك - رزقا للعباد ، يستوجب الإيمان والشكر ، وأنبتنا بذلك الماء أرضا جدبة لا نبات فيها ، مثل هذه الحياة الناشئة عن الإحياء خروجُ الموتى من القبور ، فالنبات يذبل ويجف بعد ازدهاره ويصبح ميتا ، والله - تعالى - يعيد إحياءه ويبعثه بعد الموت ، وإحياء الموتى مثل ذلك ، أفلا تعقلون ؟ .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾)

---

(١) اسم جنس . واحده نخلة .

(٢) الطلع أول ما يبدو من ثمرة النخل ، قال صاحب المختار : أول الثمر طلع ثم خلال ، ثم بلح ثم بسر ثم رطب ، ثم تمر - انظر مادة (بلح) .

المفـــردات :

(قَوْمُ نُوحٍ) : من أُرسل إليهم ، والقوم : جماعة الرجال ، وقد يندرج فيه النساءُ مجازًا كما هنا ، وتأْنيث الفعل المسند إليه (كَذَّبَتْ) باعتبار أنه اسم جنس بمعنى الجماعة .

(وَأَصْحَابُ الرَّسِّ) الرس : هى البئر التى لم تُبْن ، وقيل : هو اسم لوادٍ معين .

(فِرْعَوْنُ) : المراد به هو وقومه ، كما تسمى القبيلة باسم أبيها .

(الْأَيْكَةِ) : مجتمع الشجر ، ويطلق عليها لفظ الأَجمة .

(وَقَوْمُ تُبَّعٍ) : الحميرى .

(أَفَعَيِينَا) : أفعجزنا ، والعىُّ بالأمر : العجز عنه ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .

(بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ) : بخلق آدم وذريته .

(بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) : بل هم فى خلط وشبهة من البعث .

التفسير

١٢-١٤-(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) :

هذه الآيات مستأْنفة لتقرير أن البعث حق ، وأنهُ مُتَّفق عليه من جميع الرسل ، وأن الأُمم التى سبقت قريشًا كذبت رسلها وأنكروا البعث فعاقبهم الله - تعالى - ، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ وتهديد للكفرة من قومه .

وأصحاب الرَّسِّ قيل : إنهم ممن بعث إليهم شعيب - عليه السلام - وقيل : هم قوم حنظلة ابن صفوان ، وإخوان لوط : قومه وأهله الذين بعث إليهم ، وقيل : إنهم كانوا أصهاره ، وليس المراد بالأخوة القرابة من النسب ، وأصحاب الأَيكة أى : سكان مجتمع الشجر ، قيل : إنهم ممن بعث إليهم شعيب غير أهل مدين ، وكانوا يسكنون هذه الأَيكة فنُسِبوا إليها .

وتُبَّع: هو تُبَّع الأكبر الحميرى، واسمه أسعد، وكنيته أبو كُرَبٍ، وكان رجلًا صالحًا بين قومه الكافرين، أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: كان تبع رجلًا صالحًا، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه. وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سهل الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسبُّوا تُبَّعًا فإنه كانَ قدْ أَسْلَمَ».

وأخرج ابن عساكر وابن المنذر عن ابن عباس قال: (سألت كَعْبًا عن تُبَّعٍ، فإنى أسمع الله - تعالى - يذكر فى القرآن قوم تبع ولا يذكر تبعا. فقال: إنه كان رجلًا من أهل اليمن مَلِكًا منصورًا، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند، فرجع فأخذ طريق الشام فأَسَرَ بها أحبارًا، فانطلق نحو اليمن، حتى إذا دنا من مكة طار فى الناس أنه هادم الكعبة، فقال له الأحبار: ما هذا الذى تحدث به نفسك؟ فإن هذا البيت لله، وإنك لن تسلط عليه؟ فقال: إن هذا لله - تعالى - وأنا أحق من حَرَّمه، فأسلمَ من مكانه، وأحرم فدخلها محرمًا، فقضى نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعًا، حتى إذا قدم على قومه ...) إلى آخر ما ذكره كعب فى هذا الأثر الطويل، وخلاصة ما ذكره بعدُ أنه طلب من قومه أن يؤمنوا كما آمن فامتنعوا، فنزلت من السماء نار فأحرقت من لم يؤمن منهم[1].

والمعنى الإجمالى للآيات: كذب بالحق قبل قريش قومُ نوح، مع أنه كان ينصحهم ويطلب منهم الإيمان به، كما كذب به أصحاب الرَّسِّ[2] ممن بعث إليهم شعيب، أو هم قوم حنظلة ابن صفوان، وكذبت به ثمود قوم صالح وعادٌ قوم هود وفرعون وقومه، وقوم لوط وأصحاب الأشجار المجتمعة - الأيكة - وقوم تبع، كل هؤلاء كذبوا جميع رسلهم فحق عليهم وعيدى وثبتت عليهم كلمة العذاب فى الدنيا بعذاب استأصل كفارهم، وفى الآخرة بعذاب ينتظرهم.

١٥ - (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ):

أى: أقصدنا خلقهم من تراب ثم من نطفة فعيينا وعجزنا عن تحقيق ما قصدناه وأردناه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ كلا لم نعجز عن خلقهم كذلك، فلماذا ينكرون بعثنا إياهم

(١) انظر الآلوسى فى شرح قوله -تعالى-: «أهم خير أم قوم تبع» فى سورة الدخان، وقد أطال الكلام فيه، فارجع إليه إن شئت.

(٢) أى: أصحاب البئر التى لم تبن.

بعد موتهم ، وهو فى القياس أهون من بدئهم ، إنهم معترفون بالخلق الأول صادرًا عنا فلا ينكرونه ، بل هم فى شكٍّ واضطراب من خلق جديد ، وهو إحياؤهم بعد موتهم لينال كل امرئ جزاء ما قدم من خير أو شر .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) : ماتحدثه به من الخواطر .

(حَبْلِ الْوَرِيدِ) : الحبل معروف ، والمراد بالوريد : عرق كبير فى العنق ، وأضيف الحبل إليه لإفادة أنه ممتد فى الجسم امتداد الحبل .

(الْمُتَلَقِّيَانِ) : هما ملكان جعلهما الله لكل إنسان ، ليكتبا أعماله من خير أو شر عن اليمين وعن الشمال .

(قَعِيدٌ) أى : كلا الملكين ملازم له ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله (رَقِيبٌ عَتِيدٌ) : ملك حاضر مهيأ يرقب أقواله وأعماله ويكتبها .

التفسير

١٦ ـ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) :

الوسوسة لغة : الصوت الخفى ، ومنه وَسْواس الحُلِيّ ، (أى : صوت احتكاك بعضه ببعض) وما توسوس به نفسه : ما يخطر بباله من الخواطر الخفية المختلفة .

والمراد من قربه - تعالى - من العبد أكثر من حبل الوريد أنه - سبحانه - أعلم بحاله سِرًّا أو علناً ، فهو أقرب إليه بعلمه من حبل الوريد الذى يمتد فى عنقه ، وليس المراد منه القرب الذاتى ؛ لأنه - تعالى - ليس له مكان ، فهو من باب التمثيل والتشبيه ، وليس من باب الحقيقة .

وعن الأَثْرم أنه يقال : فى العنق الوريد ، وفى القلب الوتين ، وفى الظهر الأَبهر ، وفى الذراع والفخذ الأَكحل والنَّسا ، وفى الخنصر الأَسلم : انتهى .

وبالجملة فحبل الوريد مَثَلٌ فى شدة القرب ، وإضافة الحبل إليه للبيان كشجرالأَراك .

١٧ - (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) :

لفظ (إِذْ) ظرف بمعنى حين ، متعلق بلفظ (أَقْرَبُ) فى الآية السابقة ، أو مفعول لفعل مقدر تقديره : اذكر ، والمتلقيان : الملكان الموكلان بكل إنسان يكتبان أعماله وأقواله فى كتاب يتسلمه يوم القيامة ، فيعلم منه أنه من الناجين إن تلقاه بيمينه ، أو من أهل النار إن تلقاه بشماله أو من وراء ظهره - أعاذنا الله من ذلك - .

وعِلْمُ العبد بكتابة أعماله مع علمه بأنه-تعالى-أعلم بحاله مما يحمله على إحسان العمل ،

وقوله - تعالى - : (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف قعيد من الأَول لدلالة الثانى عليه ، والمراد من قعود الملك ملازمته للعبد للكتابة .

١٨ - (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) :

أى : أن أقوال العباد من خير أَوْ شر أو غيرهما يكتبها ملك ملازم له يرقبها ويسجلها فى صحيفته ، فإن كانت خيرًا كتبها الرقيب الذى عن يمينه ، وإن كانت شرًّا كتبها

الرقيب الذى عن يساره ، وتخصيص القول بالذكر للإيذان بأن الفعل الذى هو أظهر من القول يكتب أيضاً من باب أولى ،وقال اللقانى فى شرح الجوهرة : مما يجب اعتقاده أن لله – تعالى – ملائكةً يكتبون أعْمَالَ العباد من خير أو شر أو غيرهما ، قولا كانت أو فعلا أو اعتقادًا ، همًّا كانت أو عزما ... إلخ وقال الإمام مالك وجماعة : يكتبان كل شىء حتى الأنين فى المرض.

والمعنى الإجمالى لهذه الآيات : ولقد خلقنا الإنسان جسدًا وروحاً وعقلا ، ونعلم ماتحدثه به نفسه من الخواطر خيرًا كانت أو شرًّا ، ونحن أقرب إليه علماً من حبل الوريد فى عنقه – نحن أقرب إليه – حين يتلقى الملكان المتلقيان أحوال العبد الظاهرة والخفية ليسجلاها فى صحيفة أعماله ، وهذان الملكان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ما ينطق من قول إلا عنده مراقب ملازم له من الملكين الموكلين به ، يكتب ما يصدر عنه من الأقوال وكذا الأفعال والنوايا .

(وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾)

المفـــردات :

(وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) : وأحْضَرَت شدة الموت حقيقة ماكتبه الله على عباده من الموت الذى يليه البعث والجزاء .

(تَحِيدُ) : تميل وتعدل .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) : ونفخ فى البوق .

(مَعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) : من الملائكة .

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ) : فكشفنا عن عقلك الحجاب الذى سببته الغفلة .

(فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) : فبصرك اليوم حاد ونافذ .

التفسير

١٩ - (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) :

بعد ما ذكرت الآيات إنكار المشركين للبعث ، وأثبتت بأقوى الحجج أنه سيحصل . جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين لهم أن هذا الذى أنكروه سيلقونه حقًّا .

وسكرة الموت : مايحدث للمرء وهو مشرف على الموت من شدائد حتى تخرج روحه من بدنه .

والمعنى : وجاءت شدة الموت بحقيقة الموت الذى يبعث بعده الخلائق للجزاء ، ونبهت إليها رسل الله جميعاً ، ذلك الحق هو الذى كنت تميل وتنصرف عن التفكر فيه أيها الكافر ، لشدة غفلتك وعمق غوايتك .

٢٠ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) :

الصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والله أعلم بحقيقته وحقيقة النفخ فيه ، ولإسرافيل نفختان فى الصور كما جاءت به السنة ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية يبعث عندها الموتى — وهى المرادة هنا — وهذه الآية معطوفة على ما قبلها لبيان مايحدث بعد الموت .

والمعنى : ونفخ إسرافيل فى البوق نفخة البعث ، وقتُ ذلك النفخ يومُ إنجاز الوعيد الذى توعد الله به الكفار فى الدنيا .

٢١ – (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) :

وجاءت كل نفس من نفوس الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، معها ملكان : أحدهما يسوقها إلى المحشر سَوْقاً مُنَاسِباً لعمل المَسُوق ، بحيث يكون برفق للمؤمنين ، وبشدة للكافرين .

جاء فى الحديث مرفوعاً عن جابر أن أحدهما : ملك الحسنات ، وثانيهما : ملك السيئات اللذين كانا يكتبان أعمال العباد فى الدنيا ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقيل : غير ذلك فارجع إليه فى المطولات إن شئت .

٢٢ – (لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) :

هذه الآية استئناف مبنى على سؤال مقدر نشأ مما قبلها ، كأنه قيل : فماذا يكون بعد النفخ ومجىء كل نفس معها سائق وشهيد ؟ فقيل : يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التى لم يصدق بها فى الدنيا – من البعث وما بعده – يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا الذى تعاينه ، فكشفنا عنك الآن الحجاب الذى غطى عليك أمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى أمور الدنيا وحدها ، فبصرك اليوم نافذ لزوال المانع للبصائر فى الدنيا عن إدراك ما بعد الموت .

(وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾)

المفــردات :

(قَرِينُهُ) : شيطانه المقارن فى الدنيا .

(هَٰذَا مَالَدَىَّ عَتِيدٌ) : هذا ما عندى مُعَدٌّ ومهيأ لجهنم .

(عَنِيدٍ) : مبالغ فى العناد .

(مُرِيبٍ) : شاك فى الله – تعالى – أو فى البعث .

التفسير

٢٣ - ٢٦ - (وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ • أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ • مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ • الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) :

لكل إنسان شيطان مقارن له ومصاحب فى الدنيا ، يمتحنه الله بوسوسته ، فإن عصاه دخل الجنة ، وإن أطاعه دخل النار ، جاء فى الحديث : « مَا مِنْ أحدٍ إلا وقدْ وُكِلَ به قرينه من الجنِّ ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : ولاَ أنا إلاَّ أن اللهَ - تعالى - أعانني عليْهِ فأَسْلمَ فلا يَأْمرُنى إلا بِخَيْر » .

والمعنى : وقال الشيطان المقارن للكافر : هذا الإنسان هو ما عندى وتحت إغوائى ، عتيد أعددته لجهنم وهيأْته لها بإغوائى فاستحقها .

قال الله -تعالى- مخاطباً للملكين السائق والشهيد : اطرحا فى جهنم كل مبالغ فى الكفر للمُنْعِم ونعمته ، مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مبالغ فى منع الخير والبر عن الناس فلا يتصدق على محتاج للصدقة ، معتد ظالم للحق متجاوز له ، شاك فى دين الله وفى البعث الذى أشرك بالله فجعل معه إلهًا آخر ، فألقياه أيها الملكان فى العذاب الشديد .

حاشية

جملة (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) خبر عن (الَّذِي) وجاءت الفاء فى خبره لأنه فى معنى الشرط ، وقيل : فى الكلام تقدير ، أى : فيقال فى حقه : ألقياه فى العذاب الشديد ، ويلاحظ أن قوله -تعالى- : (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) فيه تكرار لقوله سابقاً : (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) والغرض منه التوكيد كما فى قوله -تعالى- : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٨

* (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾
قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ
ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ
ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(قَرِينُهُ) : الشيطان المقيَّض له .

(مَآ أَطْغَيْتُهُ) : ما حملته على الفساد والطغيان .

(ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : مغرق طويل مجاف للحق .

(قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ) : عذرت إليكم .

(بِالْوَعِيدِ) : بالإنذار والتخويف من عاقبة العصيان والطغيان .

(مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) : ما يغير القول عندى .

التفسير

٢٧ ـ (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) :

كلام مستأنف استئناف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول على تقدير أنه جواب لمحذوف دلّ عليه قوله ـ تعالى ـ : (رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ) كأن العبد الكافر قال : قرينى أطغانى وحملنى على العصيان والضلال ، فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الضلالِ إليه .

ولهذا الاستئناف تجرّدت الجملة عن العاطف بخلاف الجملة فى قوله ـ تعالى ـ : (وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَالَدَىَّ عَتِيدٌ) فإنها قرنت بالعاطف لتدلّ على الجمع بين مفهوميها فى الحصول وهو مجىء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه ، والقرين هنا الشيطان المقيَّض له .

والمعنى : قال الشيطان المقيض للكافر ، المقارن له والموكل به – ذا على إنكاره – : ربَّنَا ما أوقعته فى الطغيان ، ولا حملته على الضلال قسرا واستكراها ، ولكن كان هو فى ضلال بعيد عن الحق ، مغرق فى العناد والفساد ، فأعنته عليه بالإغراء والإغواء من غير قسر ولا إلجاء فهو كقوله–تعالى– : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي »[1].

٢٨ – ٣٠ – (قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ) :

استئناف آخر مبنى على سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : ماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال –عزَّ وجلَّ– : (لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ) .

والمعنى : لايخاصم بعضكم بعضاً عندى فى موقف الحساب والجزاء فإن ذلك لن يفيدكم ، ولا يغنى عنكم شيئاً ، وقد قدمت إليكم ، وأعذرت بالوعيد والتخويف ، والتحذير من عاقبة الطغيان فى الدنيا ، على ألسنة رسلى ، وفى كتبي المنزلة عليهم فلم تسمعوا ، ولم تطيعوا فلا تطمعوا فى الخلاص مما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة ،وقد علمتم ما قدمت وما أعذرتكم به ، ومن جملته ما قلته لإبليس : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[2] فاتبعتموه معرضين عن الحق ، مغرقين فى الكفر والضلال .

وقوله–تعالى– : (مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ) فضٌّ لخصومتهم ،وقطع لرجائهم ، معناه : لايقع عندى تبديل ولا تغيير لما قررناه وأردناه وقدمناه فى دار الدنيا من أنى أعاقب من جحدنى ، وكذَّب رسلى ، وخالفنى فى أمرى لا يُبَدَّل من ذلك شىءٌ بغيره وقوله– تعالى– : « وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » وارد لتحقيق الحق على أبلغ وجه ، ولتبيين أن عدم التبديل للقول وتحقيق موجَب الوعيد ليس من جهته–تعالى–من غير استحقاق له منهم ، بل إنما ذلك لما صدر منهم من الجنايات الموجبة له .

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم ، وهو لايكون منه . ويجوز أن يكون لرعاية جميع العبيد من قبيل قولهم : فلان ظالم لعبده ، ظلَّام لعبيده . وقيل إن فَعَّالاً تأتى بمعنى فاعل أى : وما ربك بظالم لعبيده.

(١) سورة إبراهيم من الآية ٢٢ . (٢) سورة ص ، الآية : ٨٥

وقوله-تعالى-: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ...) إمّا مرتبط بقوله - تعالى -: (وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) ويوم : ظرف معمول لظلام ، وإما مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكرْ لهم يوم . .

وهو سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمر جهنم وأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يُطرح فيها من الجِنَّة والناس فوج بعد فوج حتى تمتلىء ، أو أنّها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعدُ محلّ فارغ ؟ أو أنها لغيظها على العصاة ، وحنقها منهم تطلب زيادتهم .

والمعنى : وما أنا بظلام للعبيد يوم نقول لجهنم هل امتلأْت ، أو : اذكر يا محمد وأنذر بهذا اليوم الآتى لامحالة يوم نقول لجهنم وقد دفعت إليها أفواج الكافرين الضالين : هل امتلأْت ؟ وتقول بعد امتلائها : هل بقى من موضع لم يمتلئ ؟- تعنى : قد امتلأْت - ، أو أنها تستزيد وفيها موضع للمزيد .

هذا ، ويجوز أن يكون الكلام على تحقيق القول من جهنم ، وهو غير مستنكر ؛ فإنه - تعالى - سوف ينطق الجوارح فتشهد على صاحبها ، والإذن لها بنفسين ، ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر مالم يمنع مانع ، ولامانع هنا فإن القدرة صالحة والعقل مجوّز ، وأُمور الآخرة لا ينبغى أن تقاس بأُمور الدنيا .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل مِنْ مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط . قط . وعزتك وكرمك ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسلكهم فى فضول الجنة » وليس المراد بقدم الله حقيقة ، فإنه-تعالى-لا يشبه الحوادث ، ولكنه كناية عن أن النار ذليلة لأمره ، وفسره بعضهم بأنه -تعالى - يضع فيها من يقدمهم للنار ، قال ابن الأثير : قدمه ، أى : الذين قدمهم لها من شرار خلقه ، فهم قَدَمُ الله-تعالى-للنار ، كما أن المسلمين قدمه للجنة ، والقدم :كل ما قدمت من خير أو شرّ . وقيل : وضع القدم أو الرجل مثل للردع والقمع ، فكأنه قيل : يَأْتِيهَا أمرُ الله فيكفّها عن طلب المزيد .

(وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ
مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾)

المفـــردات :

(أُزْلِفَتْ) : دنت وقربت للمتقين .

(أَوَّابٍ) : رجَّاع إلى الله .

(حَفِيظٍ) يحفظ توبته من النقض أو يحفظ ذنوبه ليرجع عنها ويستغفر منها .

(خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ) : خاف عذاب الرحمن .

(بِالْغَيْبِ) أى : خاف الرحمن وهو لايراه ، أو خاف الرحمن وهو فى خلوته بعيدًا عن الناس فلا يراه أحد .

(مُنِيبٍ) : راجع إلى ربه .

التفسير

٣١-٣٣ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) :

هذه الآيات شروع فى بيان حال المتقين عند النفخة الثانية للصور ، ومجىء النفوس إلى موقف الحساب بعد عرض حال الكافرين ، والأظهر فيه أنه عطف على (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ)

والمعنى : وأدنيت الجنة وقربت للمتقين الذين وقوا أنفسهم من الكفر ، وتحاشوا المعاصى ، وقاموا على اتباع الأوامر واجتناب النواهى فاستحقوا أحسن الجزاء ، وأوفر النعيم فى جنات تجمع كل أنواع المتاع من الأنهار والأشجار ، وطيب الثمار ، ومن الأزواج الكرام ، والحور الحسان ، والخدم من الولدان . وهى قريبة منهم فى مكان غير بعيد بحيث يشاهدونها ، ولا يلحقهم تعب أو ضرر ولا مشقة فى الوصول إليها ، أو المراد حصول هذا لهم غير بعيد لأنه آت لا محالة ، وكل آتٍ قريب .

وقوله – تعالى – : « هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ » إشارة إلى الجنة ، أى : هذا الذى ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب على ألسنة الرسل لكل رجّاع إلى الله عائذ به مراقب له لا يغفل عن ذكره ، ولاينام عن طاعته ،حفيظ لعهده أن ينتقض » ولتوبته أن تنتكس ، حافظ لذنوبه حذراً أن يقع فيها مرة أخرى مستغفراً منها ، فهو أبداً مع الله نادماً على ما فرط فيه فى ماضيه ، وعزماً على الاجتهاد فى عمل ما يرضيه ، روى عن ابن عباس ، وسعيد بن سنان ، وقريب منه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر عن يونس بن خباب قال : قال لى مجاهد : « ألا أنبئكَ بالأواب الحفيظِ ؟ هو الرجلُ يذكُرُ ذنبه إذا خَلا فيستَغفرُ اللهَ – تعالى – منه » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير : كنّا نعد الأوّاب الحفيظ الذى يكون فى المجلس فإذا أراد أن يقوم قال : اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقوله – تعالى – : (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) زيادة فى الإيضاح والبيان لمعنى الأواب الحفيظ .

والمعنى : هذا الجزاء الموفور ، والنعيم المذكور لمن اشتد خوفه من ربّه ، وعظمت مراقبته لخالقه كأنه يراه أو يخشى ربّه ويراقبه فى خلوته وَغيبته عن أعين الناس حياءً من الله .

والمعنى فى قوله – تعالى – : (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) أنّهُ يداوم ذلك ، ويقيم عليه حتى يوافيه أجله فيلقى الله بقلب عاش مقبلا على طاعته ، طامعاً فى رحمته . مؤمنا بعاقبته وأوبته حتى أتى الله بقلب سليم .

٣٤، ٣٥ – (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) :

هذا على تقدير القول ، أى : يقال لهم : ادخلوها ، والمعنى : ادخلوا أيها المتقون الأوابون المنيبون ادخلوا الجنة ، واستمتعوا بنعيمها بأمان من كل مكروه ، وسلامة من كل آفة ، وسلام من الله وملائكته عليكم ، ذلك يوم الإقامة الدائمة التى لا ينقطع مداها ، ووقت الخلود الذى تعيشون فى نعيمه بلانهاية ، ولا يستكثر ذلك على أهل الجنة فلهم كل ذلك ، ولهم مايشاءون من صنوف المطالب ، وألوان النعم كائنا ما كان ، فعند الله كل ما يشتهون ، ولديه الزيادة على ما يستشرفون مما لا يخطر لهم على بال ، ولا تدركه مشيئتهم من معالى الكرامات ، ومجالى الخيرات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومع أن لهم ما يشتهون فى الجنة ، فعند الله مزيد عليه مما لا يخطر على بال .

وقال أنس وجابر : المزيد : النظر إلى وجه الله –تعالى– بلا كيف ، وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبى ﷺ ، منها ما أخرجه الديلمى عن علىٍّ – كرم الله وجهه – عن النبى ﷺ فى قوله –تعالى– : (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) قال : « يتجلى لهم الرب –عز وجل– » إلى غير ذلك من الأحاديث .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(بَطْشًا) : قوة وشدة ومنعة .

(نَقَّبُوا۟) : جالوا فى أقطارها ، وساروا فى نواحيها وطوفوا .

(مَحِيصٍ) : مهرب وملجأ يلجأون إليه .

(أَلْقَى السَّمْعَ) : تنبّه وتيقظ .

(شَهِيدٌ) : فَطِنٌ غير متغافل .

التفسير

٣٦ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ) :

هذه الآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ ، وتطمين لقلبه ببيان أن مشركى قريش لن ينالوا منه شيئًا ولن يخلصوا إليه بسوء ، وأن قوة الله التى أهلكت قبلهم قرونًا كانت أشد منهم بطشًا ، وأقوى منعة فوق قوتهم وجبروتهم ، ولو شاء لأهلكهم كما أهلك من سبقوهم من الطغاة المتجبرين .

والمعنى : وكثيرًا أهلكنا قبل مشركى مكة والمنكرين من أهلها من أهل القرون السابقة من هم أشد منهم بطشًا ، وأعتى قوة ، وأعزّ منعة أمثال عاد وثمود وأضرابهم الذين ملكوا البلاد ، وعاثوا فيها الفساد ، واستبدوا بالعباد ، وساروا فى أقطار الأرض ، وجاسوا خلالها ، وجابوا أقطارها ، فما أفادوا من ذلك ، ولا ظفروا بمهرب من الهلاك ، ولا بمعدل عن الموت ، ولا وجدوا إلا الخسرة والتساؤل (هَلْ مِن مَّحِيصٍ ؟) هل من مهرب نهرب إليه من الهلاك ؟

٣٧ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) :

أى : إن فى ذلك الإهلاك ،أو فى ذلك المذكور من أول السورة من الآيات والمشاهد والأخبار لعظة بالغة ، وعبرة رادعة لكل من له قلب وعقل واع يعقل ما يقال ، وينتفع به ، ويدرك كنه ما يشاهده ، ويوقظ سمعه ، ويلقيه لكل ما يوجّه إليه فيجتمع له من سلامة القلب وإلقاء السمع ما يحقق له النفع ، والوقوف على جلية الأمر وهو شهيد وحاضر بفطنته ويقظته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(لُغُوبٍ) : تعب وإعياء .

(أَدْبَارَ) : أعقاب الصلاة ، جمع دُبُر ، ويطلق على الظهور أيضًا ، قال ـ تعالى ـ : « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » .

(الصَّيْحَةَ) : المرّة من الصوت الشديد ، والمراد بها نفخة البعث .

(يَوْمُ الْخُرُوجِ) : يوم الخروج من القبور للبعث ، وهو من أسماء يوم القيامة .

التفسير

٣٨ ـ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) :

استئناف كلام آخر لتأكيد ما قبله بتقرير قدرته ـ تعالى ـ على خلق السموات والأرض ، وتمهيد لمـا بعده ببيان أن القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه أمر من أمور الدنيا والآخرة .

قيل : إن هذه الآية تكذيب لليهود فى زعمهم أن الله ـ تعالى ـ خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، وجعلوا هذا اليوم للراحة عندهم .

والمعنى : ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات ، وأنواع الكائنات فى ستة أيام ، وما أصابنا من تعب ولا إعياء مع قلة الزمن ، وضخامة هذه الأجرام ، وتعدّد أنواعها وأشكالها ، واختلاف أحوالها ، وتباين حركاتها ، وذلك مما لا تفى بإحصائه القوى والقدر ، فضلًا عن إيجاده .

٣٩ ، ٤٠ - (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) :

تتجه الآيات إلى تسلية الرسول ﷺ والترويح عنه بطلب الإعراض عن أقوال المشركين واليهود ، والالتجاء إلى الله بالتسبيح والحمد .

والمعنى : إذا كان أمرنا فى القدرة كما ترى فى خلق السموات والأرض وما بينهما فى أقل زمان وفى غير إعياء ولا نصب ، فاصبر يا رسول الله على ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد ، فإن من قدر على خلق العالم بهذه الصفة قادر على بعثهم ، وعلى الانتقام من المنكرين والمستبعدين .

أو : فاصبر على ما يقوله اليهود من مقالة الكفر والتشبيه ، أو : فاصبر على كل ما يقال من هؤلاء وهؤلاء ، ومهما يكن فإن هذا متصل بقوله - تعالى - : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) تسلية للرسول ﷺ ، ومدخلًا لقوله - تعالى - : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى : قدس ربك وسبح بحمده ونزّهه عن كل ما يقوله هؤلاء وهؤلاء ، وعن العجز وعن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها الإخبار بالبعث ، وعن وصفه - تعالى - بما يقتضى التشبيه نزّهه عن هذا كلّه ، وعن كل ما لا يليق بذاته حامدًا له ما أنعم به عليك من إصابة الحق ، مداومًا على هذا التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، وهما وقتا العصر والفجر لأفضليتهما ، وقد نوّه القرآن الكريم بفضلهما فى قوله - تعالى - : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا »[1] ، وفى قوله - تعالى - : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٧٨

الْوُسْطَى »[١] وهى العصر على رأى كثير من المفسرين ، ومن فضل هذا الوقت أيضًا القسم به فى قوله – تعالى – : « وَالْعَصْرِ » .

وقوله – تعالى – : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) معناه :وسبحه بعض الليل وفى جزء منه ، ولعل المقصود به السَّحَر ، فإنه الوقت المفضل للتهجد والتسبيح والاستغفار ، وأعقاب السجود أى : آخر الصلاة بعد انقضاء السجود والسلام .

وهذا بناءً على تفسير التسبيح بالتقديس والتنزيه والذكر – فإذا فسّر التسبيح بالصلوات الخمس كان المراد بما (قبل الطلوع) الفجر ، وبما (قبل الغروب) الظهرَ والعصرَ ، وبـ (ومن الليل) العشاءين والتهجد وما يُصَلَّى بأدبار السجود من النوافل بعد المكتوبات .

٤١ – (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) :

أى : واستمع – يا أيها الرسول – أخبار ما يوحى إليك من أحوال يوم القيامة يوم ينادى المنادى فيقول : أيتها العظام البالية ، واللُّحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء .

قيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى بالحشر ، وفى هذا الأمر تهويل وتفظيع لأخبار هذا اليوم .وقوله : من مكان قريب معناه :من مكان يسمعه الخلائق كلهم على حال واحدة فلا يخفى على أحد قريب أو بعيد ، فكأنهم نودوا جميعا من مكان قريب . قيل : من صخرة فى بيت المقدس ، وقيل : من تحت أقدامهم ، وقيل : من منابت شعورهم . والتعبير القرآنى فوق كل بيان .

٤٢ – (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) :

تتصل هذه الآية بقوله – تعالى – : (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ) أى : استمع يوم ينادى المنادى يوم يسمعون نفخة البعث ناطقة بالحق الذى طالما أنكروه ، وكذبوا أخباره وهو البعث الذى يسمعون النداء به حقا واقعًا ، وحقيقة ماثلة ، ذلك يوم الخروج الذى

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨

يخرج به الموتى من قبورهم لملاقاة جزائهم . ويجوز أن يكون المعنى : ذلك النداء نداء يوم الخروج من القبور – ويوم الخروج – اسم من أسماء يوم القيامة .

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾)

المفـــردات :

(الْمَصِيرُ) : المرجع للجزاء فى الآخرة .

(سِرَاعاً) : مسرعين .

(حَشْرٌ) : جمع بعد البعث .

(يَسِيرٌ) : سهل هين .

(بِجَبَّارٍ) : بمتسلط قهار .

(فَذَكِّرْ) : فخوف وحذر .

التفسير

٤٣، ٤٤ –(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) :

يخبر الله – سبحانه وتعالى – فى هذه الآية عن نفسه أنه هو القوى القادر الذى يحيي الخلق في الدنيا بعد أن كانوا عدماً ، ثم يميتهم بعد استيفاء أجلهم بعد أن كانوا أحياء ، ثم يبعثهم من قبورهم بعد أن صاروا تراباً ، وذلك بقوله مؤكدًا : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ) أى : إنا نحن نحيي ونميت فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد ، وإلينا المصير ، أى :

وإلينا وحدنا الرجوع للجزاء فى الآخرة لا إلى أحد غيرنا استقلالا أو اشتراكاً ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً : يتعلق الظرف بقوله :(وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) أى : وإلينا المرجع والمآب يوم تتصدع الأرض ، وتنشق عن أجسامهم البالية فيخرجون منها مسرعين إلى الداعى بلا توان ولا تأخير ، (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) أى : ذلك الحشر ، وهذا الجمع هين علينا يسير مع شدة التفرق ، وتباعد القبور وتناثر الأشلاء أو تحولها إلى تراب ، لا يشق علينا ، ولايقدر عليه غيرنا .

٤٥ ـ (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) :

هذه الآية تختم سورة (ق) بما يسلى الرسول ﷺ ويسرى عنه همّه ، ويهدد المشركين ويحذرهم عواقب الكفر والتكذيب .

والمعنى : نحن أعلم بما يقول هؤلاء الكفار من نفى البعث ، وتكذيب الآيات الناطقة به ، وغير ذلك مما لا خير فيه ، فلا تعبأ بقولهم ، ولا تبتئس من أحوالهم ، فما عليك إلّا البلاغ وما أنت عليهم بمتسلط تقهرهم على الإيمان ، وتقسرهم على التصديق ، ولا من مهمتك ذلك(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) أى : فحذّر وخوّف بالقرآن من يخاف العقاب ويخشى العذاب فيسمع لك ، ويستجيب لدعوتك إشفاقاً من الوعيد ، ورجاء فى الوعد ، وطمعاً فى رحمة الله . . .

« سورة الذاريات »

سورة الذاريات مكّية ، وآياتها ستون آية باتفاق ، وقد بدأت بالقسم على تحقيق الوعيد الذى ختمت به السورة قبلها لرعاية التناسب بين ختام السورة السابقة وابتداء السورة اللاحقة .

مقاصــد السورة :

ابتدأ الله – سبحانه وتعالى – السورة الكريمة بالقسم على صدق البعث وتحقيق وقوعه ، ووقوع الجزاء-أقسم سبحانه – بمخلوقات من مخلوقاته لها آثارها الواضحة ، وظواهرها الشاهدة ، ومنافعها التى لا ينكرها أحد ، ولا يجحد عقلٌ فضلها على الإنسان والحيوان ، والنبات ، فإن الرياح تسوق الأمطار إلى جميع الأقطار ، وتدفع السفن فى البحار تحمل الأمتعة والأثقال والمسافرين ، وتمخر عباب البحار ،فتسهل كل صعب وتقرب كل بعيد ، كل هذا مما يقع تحت العيان ، ولا يستطيع أن ينكره إنسان ، كما أن ما يتفاوت الناس فيه من أحوال وما يجرى عليهم من أحداث ، وما يختلفون فيه من منازل وأرزاق مما يكون فى الأبناء دون الآباء ، أو فى الآباء دون الأبناء ، أو يحظى به العاجز الضعيف ، ولايدركه المتجبر العنيف ، لايكون إلّا بتقدير ، وبتسخير من الحكيم الخبير .

وبعد أن تؤكد الآيات أمر البعث والجزاء تكشف حال المنكرين للبعث والجزاء ، وتسفه أقوالهم فى الدنيا ، وتصور مآلهم فى الآخرة : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

ثم تخلص الآيات من هذا وذاك إلى المتقين فتشيد بما ينتظرهم فى الآخرة من جميل النعيم فى جنّات وعيون ، لقاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا من طاعة الله ، والسهر فى عبادته ، والإنفاق الدائم فى سبيله ، متوخين الإحسان فى كل أعمالهم ، وسائر أحوالهم : (كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن دلائل القدرة ، بأقوى ما يشد الانتباه ، ويثير الفكر من نظر الإنسان فى نفسه ، وما أودع فيه من عجائب الصنع ، وبدائع الخلق ، وتفكره فيما يحوى هذا الكون فى سهوله ووهاده فى أرضه وسمائه ، وما يقدّر على الإنسان من أرزاق تقضى بها حكمة الكريم الرزاق ، معقبة ذلك بما لا يدع مجالًا لمن ينكرون أو يتشككون : (فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) .

ثم تستهدف الآيات غرضًا آخر فتذكر طرفًا من قصص الرسل والأنبياء ، وأحوالهم مع أقوامهم إعجازًا للقرآن الكريم بإخباره عن أحوال الغابرين ، وتسلية للرسول ﷺ بذكر ما جرى لإخوانه من الرسل السابقين .

واختصت هنا طائفة من الرسل اشتدت معاناتهم مع أممهم وأقوامهم ، فذكرت إبراهيم وموسى – عليهما السلام – وعرضت للأمم التى أوغلت فى الطغيان ، وأغرقت فى التجبر من أمثال عاد وثمود وقوم نوح ، فلاقت أشد النكال وأسوأ المآل .

ثم عرضت الآيات إلى الحديث عن مظاهر القدرة ببناء السموات وامتدادها ، وفرش الأرض وبسطها وتمهيدها ، وتعدد المخلوقات وازدواجها مما لا يتحقق إلا بقدرة لا يقادر قدرها ، وحكمة لا يدرك كنهها ، ويقين يدفعنا إلى صدق الإيمان ، ويسوقنا إلى الفرار إلى الله ، والاعتماد عليه دون سواه .

ثم تختم السورة بالغرض الأسمى ، والمقصد الأعلى ، والغاية العليا من خلق الإنسان والجان ، وهى توحيد الله – تعالى – وعبادته : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ثم تهدد الكافرين بسوء المصير : (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ
يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ
الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(الذَّارِيَاتِ) : الرياح تذرو الغبار وغيره .

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا) أى : فالحاملات السحب المثقلة بمياه الأمطار .

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) : فالسفن التى تجرى فى البحار والأنهار فى يسر وسهولة .

(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) : فالملائكة التى تنفذ أوامر الله وقضاءه .

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) : إنما البعث الذى توعدونه لصادق .

(وَإِنَّ الدِّينَ) : الجزاء يوم القيامة .

(لَوَاقِعٌ) : حاصل .

التفسير

١ - ٦ - (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) :

اختتمت سورة (ق) بالتذكير بالوعيد ، والتخويف من وقوعه . وافتتحت سورة الذاريات بتأكيد خبره ، وصدق وقوعه إبداعًا فى الإعجاز ، وإحكاما للتنسيق بين السورتين .

والمعنى : أقسم بالرياح التى تذرو الغبار ،وتطيّر التراب والرمال ، وتهب بين الزروع فتلقح الأشجار ، وتدفع السفن فى البحار والأنهار ، وتسوق السحب إلى حيث يشاء الله بالأمطار ، وأقسم بالسحب المثقلة الموقرة بالمياه التى تفرغها فى الفيافى والقفار ، وتجرى بها القنوات والأنهار ، فيشربها الإنسان والحيوان ، ويُروى بها الزروع والأشجار ، ويعيش عليها جميع الكائنات ، وأقسم بالسفن التى تمخر عبابَ المياه فى يسر ورخاء تحمل الأمتعة والأحمال ، وتعين على الترحل والانتقال ، وتمكّن من الانتفاع بخيرات البحار ، وتربط بين الأقطار ، فى أمن وسلامة من البحار وأمواجها ، وأقسم بالملائكة تنزل بأوامر الله وأقضيته فتجريها على الخلق كلّ بما قدر له رزقًا وحرمانًا وإحياء وإماتةً ، وإقامة وسفرًا ، وصحة ومرضًا ، وإنجابًا وعقمًا ، وغير ذلك مما يجرى على الإنسان بقضاء الله .

وقد ثبت من غير وجه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة عن رسوله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكوّاء فقال : يا أمير المؤمنين ... ما معنى قوله ـ تعالى ـ : (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ؟) فقال على ـ رضى الله عنه ـ : الريح . قال : (فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . ؟) قال : السحاب . قال : (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) . قال : السفن . قال : (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) قال : الملائكة ، ذكره ابن كثير ، ومثله فى الكشاف .

وقد أقسم الله بهذه الأشياء لكثرة ما فيها من المنافع ، والمشاهد الواقعة بين الناس بحيث لا ينكرها أحد ، ولما تتضمنه من الدلالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وتناهى قدرته ، وبدائع صنعته .

وفى هذا القسم إشعار بأن لله ـ تعالى ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وأنه يجوز للمخبر بأمر أو المتحدث عن شأن أن يقسم على صدقه ، وإن كان من القداسة أو المنزلة بحيث لا يتطرق إلى خبره شك تأكيدا للخبر ، واهتماماً بشأنه . وقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) هو المقسم عليه ، أى : إنَّ الذى توعدونه من أمر البعث والثواب والعقاب والجنة والنار لصادق ثابت لا مجال فيه لريب ، وإنَّ الجزاء على الأعمال لحاصل وواقع لا فوت منه ، ولا مفرّ عنه فافعلوا فعلكم ، وانتظروا جزاءكم .

(وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ
عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾
ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(الْحُبُكِ) المراد من الحبك هنا : طرائق النجوم . وقال ابن عباس وغيره :ذات الخَلْق المستوى الجيد ، من قولهم : حبكت الشيء : أحكمته وأحسنت عمله .

(مُخْتَلِفٍ) : متخالف متناقض .

(يُؤْفَكُ عَنْهُ) : يصرف عنه .

(الْخَرَّاصُونَ) : الكَذَّابون المقدرون مالا صحة له .

(غَمْرَةٍ) : فى لُجَّة تغمرهم من الجهل والضلال .

(يَوْمُ الدِّينِ) : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، من : دِنْتُه ، أى : جازيته .

(يُفْتَنُونَ) : يعرضون على النار للحرق . وأصل الفتنة : عرض المعدن على النار لتظهر جودته ، ثم استعمل فى الإحراق .

التفسير

٧ - ١٤ - (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) :

أكّد القسم فى الآيات السابقة صدق البعث والقيامة ووقوع الجزاء ، ثم جاءت هذه الآيات وأنشأت قسمًا آخر يسفه عقول المشركين ويندد بغوايتهم وجهلهم فقال-تعالى- : (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) .

والمعنى : وأقسم بالسماء ذات الطرائق المختلفة لمسيرة النجوم فى خَلْق مستو وزينة منتشرة فى نواحيها ، إنكم أيها المشركون لنى قول متخالف متناقض متدافع فتعتقدون وجود الله ، وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه ، وتقولون فى الرسول تارة : إنه مجنون ، وأخرى إنه ساحر أو شاعر ، والساحر لايكون إلا عاقلًا حريفًا ، والشاعر لايكون إلا موهوبًا متصرفًا وتقولون فى شأن القيامة لاحشر ولاحياة بعد الموت ، وتزعمون أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتضاربة ، والآراء المتضادة .

ولعل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها ، واختلاف هيئاتها ،وقوله-تعالى- : « (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) معناه :يصرف عن القرآن أو عن الرسول ﷺ من صرف عن الخير إذ لا صرف أفظع وأشد منه ، وقيل : يصرف عنه من صرف فى علم الله وقضائه .

ويجوز أن يكون الضمير فى (عَنْهُ) للقول المختلف على معنى : يَصْدُر إفك من أُفِكَ عن القول المختلف وبسببه .

وقوله-تعالى- : (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) دعاءٌ عليهم كما فى قوله-تعالى- : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى لُعن ، أى : أُبعد الكذابون المقدرون لما لا يكون ولا صحة له عن رحمة الله ، وهم أصحاب القول المختلف الذين هم فى غمرة وشدة من الجهل والضلال غافلون ساهون عما أُمروا به : (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) أى : متى وقوع يوم الجزاء ؟ لا يقصدون بالسؤال استعلامًا ، ولكن يسألون سخرية واستبعادًا . وقوله-تعالى- : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) جواب لسؤالهم بما يسوءهم من الجزاء الذى لا محالة نازل بهم ، أى : يكون هذا الجزاء يوم يعذبون ويحرقون بالنار - قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أُدخل

النار قيل : فُتِنَ ، فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب لإظهار حقيقته ، ويقول لهم خزنة جهنم امتهانًا وتبكيتًا : ذوقوا فتنتكم وعذابكم بالإحراق ، هذا الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا تكذيبًا وإنكارًا قد وافاكم ، وحاق بكم فوقعتم فيه ، وعرفتم صدقه .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ
رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ
مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا
تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) : قابلين ما أعطاهم ربهم راضين به .

(يَهْجَعُونَ) : ينامون . والهجوع : النوم ليلًا .

(الْأَسْحَارِ) : جمع سَحَر ، وهو الوقت الذى قبيل الصبح .

(حَقٌّ) : نصيب وافر استوجبوه على أنفسهم .

(لِلسَّآئِلِ) : للمستجدى الذى يسأل الناس .

(الْمَحْرُومِ) : المحتاج المتعفف الذى لا يسأل الناس ، ولا يفطن أحد لحاله فيحرم الصدقة .

(آيَاتٌ) : دلائل واضحات .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ) :

انتقلت الآيات بعد شرح أحوال المشركين ، وعرض ما يستحقون من العذاب ، وما أعدَّ لهم من سوء الجزاء إلى وصف أحوال المتقين وما ينتظرهم من نعيم لقاء ما أخذوا به أنفسهم فى الدنيا من الإحسان ، وقاموا عليه من الطاعة والانهماك فى العبادة وبذل الصدقات ، فى سبيل الله عن رِضًا وسخاء .

والمعنى : إن المتقين الذين سلكوا الطريق السّوى فلزموا الطاعة ووقوا أنفسهم من مهالك الشرك ، ومهاوى المعاصى سيسعدون فى الآخرة بألوان مختلفة من النعيم فى جنات متعددة الأشجار والثمار ، تزيدها العيون الجارية فيها بالماء جمالًا وبهجة ، وتزيد المتقين نعيمًا ومتعة ، ويتلقون هذا النعيم راضين حامدين - وكيف لا يرضون وكل ما آتاهم حسن مرضى يُتَلَقى بحسن القبول ، وعظيم الرضا والشكر ، فإن عملهم الصالح فى الدنيا لا يساوى شيئًا بجانب هذا النعيم .

١٧ ، ١٨ ، ١٩ - (كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

هذه الآيات بيان لأعمالهم الصالحة ، وتعداد لصور من إحسانهم . أى : ومن جملة إحسانهم أنهم كانوا يسهرون ليلهم فى العبادة ، ولا ينامون من الليل إلا قليلًا ، ومع طول السهر فى العبادة وقلة الهجوع كانوا يداومون الاستغفار فى السحر قبيل الفجر ، ويحرصون على ذلك فلا يفوتهم . قال الحسن : مدّوا الصلاة إلى الأسحار ، ثم أخذوا بالأسحار فى الاستغفار .

(وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) : وفى أموالهم نصيب وافر استوجبوه على أنفسهم لكل محتاج مستعرض للمسألة أو متعفف لا يسأل أحدًا ولا يفطن الناس له فيحرم من الإحسان والصدقة . والمقصود من هذا الحق الصدقة ، لا الزكاة ، لأن السورة مكية والزكاة مدنية ، وقيل : المحروم هو الذى لا سهم له فى الغنيمة ، أو الغارم ، والأصل هو أن المحروم الممنوع الرزق لترك السؤال أو ذهاب المال أو غير ذلك مما يصير به الإنسان فقيرًا ولا يتعرض للمسألة .

وفرّق قوم بين الفقير والمحروم بأنه قد يحرمه الناس بترك الإعطاء وقد يحرم نفسه بترك السؤال ، فإذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال ، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه ولم يحرمه الناس .

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ - (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) :

فى هذه الآيات توجيه إلى التدبر فى آيات ومظاهر قدرته -تعالى- للانتفاع بذلك فى ترسيخ العقيدة ، وتعميق الإيمان ، فإن من ينظر فى آثار قدرة الله على الأرض التى تقلُّه ، وفى نفسه وتكوين خلقه وجسمه ، وفى السماء التى تظلُّه - إن من ينظر فى ذلك كله - يجد من دلائل القدرة ما يدعم الإيمان ، ويؤكد اليقين بالصانع الحكيم .

والمعنى : وفى الأرض التى تعيشون عليها ، وتمشون فى مناكبها دلائل على الصانع وحكمته وعلى الخالق وقدرته من حيث إنَّهَا كالبساط لما فوقها كما قال -تعالى- : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا[1] » وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها ، وهى متنوعة بين سهل وجبل ، وصلبة ورخوة ، وخصبة وسبخة ، ويتعدد فيها أنواع النبات وتسقى بماء واحد فتأتى بالثمار مختلفة ، ونفضل بعضها على بعض فى الأُكل ، وكلها موافقة لحوائج الناس ومنافعهم فى صحتهم واعتلالهم ، وحلهم وترحالهم ، وفيها من العيون المتفجرة والمعادن

(١) سورة طه من الآية : ٥٣ .

المتنوعة ، والدواب المنبثة ، والحشرات المختلفة فى برها وبحرها المتعددة الصور والأشكال والحركات والأفعال من الوحشى والإنسىّ ، والنافع والمؤذى - فى هذا كله آيات للموقنين الموحدين الذين يلتمسون سبل الهداية والسلوك السوى الموصل إلى المعرفة ، فهم ينظرون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأوّلها فازدادوا إيمانًا على إيمانهم .

(وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) أى : وفى خلقكم آيات ودلائل ،أى : وفى حال ابتداء خلقها ، وتنقلها من حال إلى حال ما تتحير فى تصوّره الأذهان - وحسبك بالقلوب - وما ركب فيها من عقول ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما فى تركيبها وترتيبها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة ، وناهيك بما سوّى فى الأعضاء من المفاصل فإذا تعطل شىء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذّلّ ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله - تعالى - : (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) : أغفلتم فلا تنظروا فى أنفسكم فتبصروا هذا كلّه بعين البصيرة وتقدروا نفعه لكم، وآثاره فى حياتكم فيزداد إيمانكم ، ويعظم شكركم .

وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية .

(وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) أى : وفى السماء تقدير رزقكم وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من المطر ، والشمس والقمر والمطالع والمغارب التى تختلف بها الفصول فتختلف المحاصيل ، وتتنوع الأرزاق .

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالسماء السحاب ، وبالرزق المطر ، ومعنى قوله -تعالى- : (وَمَا تُوعَدُونَ) أى : الذى توعدونه من خير وشر ، وثواب وعقاب ، أو جنة ونار لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء .

٢٣ - (فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) :

هذا القسم لتأكيد المقسم عليه وتحقيقه ، والأرجح فى ضمير (إِنَّهُ لَحَقٌّ) أن يكون راجعًا إلى كل ما تقدم من أول السورة .

والمعنى : فورب السماء والأرض إن كل ماتقدم فى هذه السورة من أخبار وأحوال ، وأوصاف وتذكير حقٌّ واقع وأمر ثابت لا يرقى إليه شك ، ولا يختلف فى أحقيته أحد ، وكما أنه لا شك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى ألا تشكوا فى حقيته ، فهو كما نقول : إن هذا حق مثل [١] أنك تبصر وتسمع .

روى عن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابىٌّ على قعود له .

فقال : مَن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كتاب الرحمن . قال : اتلُ علىَّ ، فتلوت (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ...) فلما بلغت قوله – تعالى – : (وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) . قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على مَنْ أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولَّى .

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف بالبيت ، فإذا بمن يهتف بى بصوت دقيق فالتفت فإذا هو الأعرابى قد نحل واصفر فسلَّم علىَّ واستقرأنى السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : « قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » . ثم قال : وهل غير هذا ؟ « فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ... » فصاح وقال : يا سبحان الله . مَنِ الذى أغضب الجليل حتى حلف . لم يصدقوه بقوله : حتى ألجأوه إلى اليمين . قالها ثلاثًا ، وخرجت معها نَفْسُه .

---

(١) وكلمة مثل منصوبة على أنها صفة لمحذوف تقديره : إنه لحق حقا مثل ما أنكم تنطقون ، أو منصوبة على أنها حال ، وتوغلها فى الإبهام يمنع تعرفها بالإضافة ، ويصح أن تكون صفة لكلمة حق فى محل رفع ، وبنيت على الفتح لإضافتها لغير متمكن ، كما فى قوله تعالى : « لقد تقطع بينكم » .

(هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟
عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾
قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) الضيف : النازل على محلة قوم وليس منهم ، ويقال للواحد والجمع ، ويجمع على ضيوف ، وضِيفَان وأَضيَاف ، واختلف فى عددهم، قيل : ثلاثة ، وقيل : تسعة ، وقيل : اثنا عشر .

(مُنكَرُونَ) : مجهولون .

(فَرَاغَ) : مال فى خفية .

(فَقَرَّبَهُ) : قدّمه .

(فَأَوْجَسَ) : أحس فى نفسه .

(صَرَّةٍ) : صيحة وضجة .

(فَصَكَّتْ) : ضربت .

(عَقِيمٌ) : عاقر .

التفسير

٢٤ ، ٢٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) :

هذه الآيات شروع فى مقصد آخر من مقاصد هذه السورة يتمثل فى عرض طائفة من القصص والأخبار الصادقة ليتسلى بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ويتأسى بما لاقاه الأنبياء السابقون من عنت أقوامهم ، وعانوا من عنادهم وكفرهم وبما وقع للأمم التى أغرقت فى العناد وأسرفت فى الفساد ، وأمعنت فى الضلال والإضلال .

وقد بدأت هذا المقصد بحديث ضيف إبراهيم الذين استضافوه من الملائكة ، واستهلته بالاستفهام المشوق إلى طرافة الحديث ، المؤذن بأنه حديث تستلذه الأسماع ، وتطيب بسماعه النفوس ، لأنه مما لا يعلمه الرسول إلا بطريق الوحى .

والمعنى : هل أتاك - أيها الرسول - حديث ضيف إبراهيم الذين استضافوه من الملائكة المكرمين عند الله فى المنزلة وفى شرف الوفادة ، وعند إبراهيم - عليه السلام - حيث قام على خدمتهم بنفسه وزوجه .

وقوله - تعالى - : (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ) توقيت للحديث أى : هل أتاك هذا الحديث وقت دخلوا عليه بيته فبادروه بقولهم : نؤمنك أمانا ونسلم عليك سلاما حتى لا يروعك ولا يخيفك دخولنا ، قال ردًّا عليهم : عليكم سلام دائم ، أو أمرى معكم سلام . وقوله : قوم منكرون ، أى : أنتم قوم مجهولون عندى لا معرفة لى بكم ، ولا عهد لى معكم ، والظاهر أن هذا خاطر حدّث به نفسه ، لأنه ليس من كرم الضيافة أن يقول المُضيف مهما كان لمضيفه : أنا لا أعرفك فضلا عن أن يكون القائل إبراهيم ، المضياف الكريم .

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ - (فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) :

المعنى : فمال إلى أهله فور دخولهم عليه فى خفية منهم فإن من حسن أدب المضيف أن يبدأ ضيفه بالقرى ، وأن يبادره به حذرًا من أن يكفه ويمنعه ، أو يعذره أو يصير منتظرًا ، وقوله - تعالى - : (فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) أى : مكتنز لحماً وشحماً غير مهزول جاء به بسرعة .

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) أى : فقدم الطعام إلى الضيف وطلب إليهم تناوله يقوله : ألا تأكلون ؟ فهو بمثابة قولنا للضيف عند إحضار الطعام : تفضل لتناوله . ولم يقبل الضيف على الطعام ، ولم يتقدموا للأكل (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) فأحس فى نفسه خيفة وإشفاقا منهم ، وعرفوا ذلك منه (قَالُواْ لَا تَخَفْ) فقالوا له مطمئنين : لاتخف ، وكشفوا عن حقيقتهم (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) يشب ويكبر حتى يدرك مدارك الرجال ، ويصير من أهل العلم والمعرفة ، وهو إسحاق - عليه السلام - لقوله - تعالى - : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ[1] » والظاهر أن زوجه كانت تقف قريباً من إبراهيم وضيفه بحيث تسمعهم ولا يرونها ، فلما سمعت البشارة دهشت ، ونسيت ما ينبغى منها (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) أى : فأقبلت عليهم فى صيحة وضجة ، وضربت جبهتها بأصابعها على عادة النساء إذا سمعن أمرا عجيباً ، وقالت : أنا عجوز عاقر ، فكيف تتأتى هذه البشارة ؟ ! ! وكيف ألد ؟ ! !

٣٠ - (قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) :

قالت الملائكة : الأمر كما سمعت ، أو مثل ذلك القول الكريم قال ربّك ، وإنما نحن معبّرون بخبرك به - عنه تعالى - لا أنّا نقول ذلك من تلقاء أنفسنا ، إنّه هو الحكيم الذى يضع الأمر فى موضعه وضعاً متقنا ، العليم الذى يكون قوله حقاً لا محالة .

وقد تعددت رواية هذه القصة هنا وفى سورة هود وسورة الحجر ، واختلفت أساليبها فبرز فى كل واحدة من هذه الروايات جانب لم يظهر فى الموقع الآخر على أسلوب القصص القرآنى إذا تعددت رواياته .

(١) سورة الصافات الآية : ١١٢

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٦٩٣ — ١٩٨٧ — ٢٥٠٠٤